أخبار مجموعة في

فتح الأندلس وذكر أمرائها

والحروب الواقعة بينهم



دار الفرجاني للنشر والتوزيع

أخبار مجموعة في
فتح الأندلس وذكر أمرائها
والحروب الواقعة بينهم

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

أخبار مجموعة في

فتح الأندلس وذكر أمرائها

والحروب الواقعة بينهم

دراسة وتقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

دار الفرجاني للنشر والتوزيع

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

كانت أسبانيا فى العقد الأخير من الحكم القوطى تعانى ضعفًا سياسيًا واجتماعيًا يجعلها فريسة سهلة لأى فاتح يُقْدمُ عليها سواء من جهة الجنوب أو الشمال .

فالمجتمع فى ذلك الفترة ينقسم إلى عدة[1] طبقات يسيطر فيها القوى على الضعيف .

١ ـ الطبقة العليا :

التى تتكون من الملك والنبلاء ، وكان الملك القوطى يعين بالانتخاب لا بالوراثة من أسرة الفاتح القوطى الأول ، فالملكية القوطية كانت ملكية انتخابية وعلى الرغم من محاسن هذا النظام الذى يجعل الحكم للأصلح ، إلا أنه أدى فى النهاية إلى وجود تنافس مستمر بين النبلاء للوصول إلى العرش ، فكثرت الدسائس والمؤامرات التى أضعفت من قوة الدولة وأفراد هذه الطبقة كان نفوذهم غير محدود كما كانت ممتلكاتهم شاسعة ومعفاة من الضرائب .

٢ ـ طبقة رجال الدين :

كان نفوذهم غير محدود كذلك ، لأن الدين فى العصور الوسطى كان مسيطرًا على شىء تقريبًا لدرجة أن بعض الناس كان يعتقد أن رجل الدين فى استطاعته أن يدخله الجنة أو النار ، كذلك كان لرجال الدين نفوذ سياسى إلى نفوذهم الروحى ، إذا كان عليهم أن يباركوا الملك الجديد بعد انتخابه .

---

(١) الدكتور أحمد مختار العبادى فى تاريخ المغرب والأندلس ٥١ ـ ٥٢ .

وهذا يدل على اشتراكهم فى انتخاب الملك ، كذلك كـانت ممتلكاتهم العقارية معفاة من الضرائب مثل النبلاء تمامًا .

٣ـ الطبقة الوسطى :

هذه الطبقة عادة هى الطبقة العصامية الحرة المستنيرة ، كثرتها تدل على رخاء المجتمع وقلتهـا تـدل على اختلالـه ، فهى ميـزان المجتمع ، ففى الفترة الأخيرة من حكم الـدولـة القوطية . يلاحظ أن هذه الطبقة الوسطى كانت قليلة العدد ، مثقلة بالضرائب ، وحالتها سيئة .

٤ ـ الطبقة الدنيا :

هذه الطبقة كانت أكثر عددًا من الطبقات السابقة ، وأقل حقوقا ، ومعظم أفراد هذه الطبقة كانوا يشتغلون فى مزارع النبلاء ورجال الدين ، وهم مرتبطون بالأرض التى يشتغلون فيها ، فهم ملك لصـاحبها ، وينتقلون معها إذا بيعت أو انتقلت إلى ملكيـة شخص آخر فهم عبيد للأرض .

٥ ـ طبقة اليهود :

هؤلاء اليهود كان عددهم كبيرًا فى أسبانيا ، وكانوا يقومون بالأعمال المالية والحسابية فى دواوين الحكومة ، ولكنهـم كانوا مكروهين بسبب اختلاف عقيـدتهم ، وبسبب تعاطيهم الربـا ، ولذا تعرضوا لكثير من الاضطـرابات ، واضطروا إلى محاولـة قلب نظام الحكم عن طريق الثورة حينًا ، وعن طريق المؤامرات حينًا آخر .

ويبدو أن اليهود فى أسبانيا كانوا على اتصال بأبناء مِلّتهم فى شمال أفريقيا ، وعلى علم بأخبار الحرية الدينية التى كانوا يتمتعون بها فى ظل الحكم الإسلامى ، وقد دفعهم هذا إلى محاولة إسقاط الدولة القوطية والاستعانة بالعرب .

هذه كانت لمحـة سريعة عن الحالة الاجتماعية فى أسبانيـا قبيل الفتح الإسلامى ونجد فيها مجتمعًا مفككًا فاسدًا .

أما الحالة السياسية التى مرت بها أسبانيا فى الثلاثين سنة الأخيرة من حكمها فنجد أنها هى الأخرى كانت سيئة وغير مستقرة .

ففى عهد الملك Egica (٦٨٧ ـ ٧٠٢ م) انعقدت ثلاث مجاميع دينية هامة :

١ ـ **المجمع الدينى الأول سنة ٦٨٨ م** : وكان هدفه تسوية المنازعات القائمة بين هذا الملك الجديد وورثة سلفه الملك Eyvig .

٢ ـ **المجمع الدينى الثانى سنة ٦٩٣ م** : ويدور حول محاكمة أسقف العاصمة طليطلة لأنه تزعم مؤامرة ترمى إلى اغتيال الملك وأسرته وبعض أنصاره .

وقد قرر المجمع الاكتفاء بعزل هذا الأسقف من منصبه نظرًا لمركزه الدينى الكبير .

٣ ـ **المجمع الدينى الثالث سنة ٦٩٤ م** : وكان هدفه الحكم فى المؤامرة التى دبَّرها يهود أسبانيا بالاشتراك مع يهود المغرب لإسقاط الدولة القوطية والاستنجاد بالعرب .

وقد أصدر هذا المجمع مرسومًا بمصادرة أملاك اليهود ، وفصل أبنائهم عنهم بعد سن السابعة ، وتربيتهم فى أوساط مسيحية حتى ينشأ هؤلاء الأبناء نشأة مسيحية .

وقد أثار هذا القرار غضب اليهود وحنقهم على الدولة القوطية .

ولقد عمل الملك القوطى Egica على إشراك ابنه غيطشة Witiza معه فى الحكم ولما مات هذا الملك ، استبد ابنه غيطشة بالملك دون أن ينتظر قرار مجلس النبلاء بانتخابه كما جرت العادة بذلك .

ولهذا اشتدت معارضة النبلاء ضده وزاد الأمر تعقيدًا أن غيطشة حاول هو الآخر أن يقيم ولده وقلة Akhila وليًّا لعهده .

فلما مات غيطشة سنة ٧٠٨ م كان ابنه وقلة مقيمًا فى إحدى الولايات الشمالية فأسرع بالعودة إلى العاصمة طليطلة ، ولكنه لم يستطع دخولها وهُزِمَ جيشه .

واختار الحزب المعارض من النبلاء والقساوسة شخصًا آخر بعيدًا عن الأسرة المالكة

وهو الـدوق ردريـــق أو لذريق Rodrigo فأقاموه ملكًا على أسبانيا بعد أن عزلوا وقـلة ابن غيطشة .

وهنا ينقسم الجيش والرأى العـام على نفسه ، فريق يوالى الملك الجديـد ، وفريق آخر يوالى الملك المخلوع ، وتصبح البلاد فى حالة فوضى سياسية .

وهكـذا نرى ممـا تقـدم أن أسبانيـا فقـدت وحدتها السيـاسيـة ، كما فسدت حيـاتها الاجتماعية ، فى الـوقت الذى ظهـرت فيه العدوة المغـربية كقـوة متماسكة تنتهـز مثل هذه الفرصة المواتية للتدخل فى أسبانيا تحت راية الإسلام .

ولكن كان لابد من وجوب سبب مباشر يبرر هذا التدخل .

هنا تختلف الـرواية العربيـة عن الرواية الأسبانيـة حول هذا السبب المبـاشر الذى من أجله تدخل المسلمون فى أسبانيا .

فـالروايـة الإسلاميـة : تـرجعه إلى وازع الانتقـام الشخصى ، وتسوق فى ذلك قصـة ملخصها أن الكـونت يوليـان حاكم سبتـة السالف الـذكر ، كـانت له ابنـة جميلة تسمى فلورنـدا ، وأنه جريـا على عادة الطبقة الـراقية فى ذلك الـوقت ، أرسلها إلى القصر الملكى القوطى بطليطلـة لتتأدب وتتعلم فيه أسوة بغيرهـا من بنات الطبقة الراقيـة ، ثم حدث أن رآها الملك لذريق وأحبهـا واعتدى على شرفها ، فكتبت إلى أبيها بخبرها ؛ فـذهب يوليان إلى القصر الملكى وسحب ابنته من هناك وهو يضمر الشر والانتقام .

وتضيف الرواية أن الملك القوطى طلب من يوليان أن يـرسل إليه صقورًا للصيد جريا على عادته ، فرد عليـه يوليان بقوله : سأهديك صقورًا لم تـر العين مثلها ، ويقصد بذلك العرب ، ثم اتصل يوليان بموسى بن نصير وهو على غزو أسبانيا مبينًا له سوء الأحوال فيها فاستجاب مـوسى لطلبه ، وأقدم على هذا الغـزو بعد استئذان الخليفة الأمـوى الوليـد بن عبد الملك .

هذه هى الرواية الإسلامية التى لا نجدها فى المصادر الأسبانيةالمعاصرة ، ولكن بمرور

الزمن دخلت هذه القصة العربية فى القصص الأسبانى والأغانى الشعبية الأسبانية ، وهو ما يعرف فى الأدب الأسبانى باسم Romzncero ثم لم تلبث هذه الروايات أن اختلطت بالتاريخ الأسبانى كما لو كانت حقيقة تاريخية .

وهذا مما دعا بعض المؤرخين الحديثين إلى إنكارها ، فى هذه القصص والأغانى الشعبية الأسبانية نجد وصفا لجمال هذه الفتاة ، وكيف أنها كانت تهوى السباحة فى نهر التاجو بطليطلة ، وكيف رآها الملك وهى تستحم فأحبها . . . . إلخ وتسميها باسم فلورندا ، وإن كانت فى بعض الأحيان تنعتها باسم La Cava وهو تحريف للكلمة العربية التى تطلق على المرأة الفاسدة الفاجرة (قحبة) .

هناك رواية أخرى ترويها المصادر الأسبانية المعاصرة كسبب مباشر للغزو العربى لأسبانيا : ملخصها أن الملك القوطى وقلة لما عزل من ملكه ، ذهب أنصاره إلى حليفة يوليان حاكم سبتة طالبين مساعدته ، فقادهم يوليان بدوره إلى موسى بن نصير بالقيروان حيث تم الاتفاق على أن يمدهم موسى بجيش من عنده ليرد إلى ملكهم المعزول عرشه فى نظير جزية سنوية يؤديها للعرب . هذه الرواية أقرب إلى الحقيقة .

يطلق لفظ الأندلس على ما دخل فى عالم الإسلام من شبه الجزيرة الإيبيرية مهما كانت مساحته ، فالمسلمون يطلقون لفظ الأندلس على شبه الجزيرة كله ، الذى عرفناه عند الفتح ، عندما دخل شبه الجزيرة كله فى الإسلام .

وعندما اقتصر الأندلس الإسلامى عن مملكة غرناطة ظل المسلمون يطلقون على مملكة غرناطة اسم الأندلس .

والأندلس يطلق على إسبانيا الإسلامية والبرتغال الإسلامية وهو مشتق من واندالوسيا Vand aluci وهو الاسم الذى أطلق على الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة جنوبى حوض نهر بيطى Betis الوادى الكبير .

ولما كان التاريخ السياسى العام للأندلس هو قصة الصراع بين إسبانيا النصرانية

بشتى وحداتها السياسية وإسبـانية الإسلامية فقد عنيت هنا ببيان تطور إسبـانيا الإسلامية ولهذا فقد بينت هنـا اتساع إسبانيا النصرانيـة وتطور الجماعة القوطيـة التى هربت إلى شمال الجبال الكنتبرية La Cardillera Contabircaوإنشاءها إمارة بلايو Pelayo سنة ١٠٤ هـ/ ٧٢٢ م .

وهذه الإمارة هى التى يقال إنها إنتصرت على قوة إسـلامية أرسلها عليها والى الأندلس الهيثم بن عبيـد الكنانى سنـة ١١٢ هــ/ ٧٣٠ م عند مـوضع يسمى صخرة كافادونــجا Cavadongo وتلك هى المعـركة التى يقـال إنها تعين ميلاد إسبـانيا النصرانيـة قرب بلـدة Cangos de onisالحالية ، إلى الشرق من أبيط Avieds فى اشتريس Asturios وإلى شرق كانجاس قامت إمارة نصرانية قديمة عليها رئيس يُلقَّب بلقب دوق يسمى بطرس Petrus أنجب ولدا يسمى ألفونسو تزوج ابنة بلاى ، ومن هذا الزواج نشأت مملكة اشتريس شمالى الجبـال الكنتبريـة ، التى ضمَّت أيضًا بـلاد جليقيـة Galicia فى أواخـر عصر الـــولاة وانسحب المسلمـون من شمال غرب شبـه الجزيرة فيما يعرف اليـوم بأرض ليون ، فـأخذت مملكة اشتريس تمتد إلى الجنوب فى اتجاه نهر دويرو Duero .

فلهذا نقـدم للمكتبة العربية كتـابًا هامـا فى الدراسات الأندلسيـة حيث يلقى الضوء على أسباب فتح العرب للأندلس والصعوبات التى اعترضت العرب فى فتحها .

ونسأل الله العون والمغفرة يا أرحم الراحمين

والله ولى التوفيق

القاهرة فى ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م

الدكتور / **محمد زينهم محمد**

كشاف ولاة الأندلس
حسب التاريخ

١ ـ طارق بن زياد

من ٩٢ هـ / ٧١١ م إلى ٩٣ هـ / ٧١٢ م

٢ ـ موسى بن نصير

من ٩٣ هـ / ٧١٢ م إلى ٩٥ هـ / ٧١٣ م

٣ ـ عبد العزيز بن موسى

من ٩٥ هـ / ٧١٣ م إلى ٩٧ هـ / ٧١٦ م

٤ ـ أيوب بن حبيب اللخمى

من ٩٧ هـ / ٧١٦ م إلى ٩٧ هـ / ٧١٦ م عدة شهور بسيطة .

٥ ـ الحر بن عبد الرحمن الثقفى

من ٩٧ هـ / ٧١٦ م إلى ١٠٠ هـ / ٧١٩ م

٦ ـ السمح بن مالك الخولانى

من ١٠٠ هـ / ٧١٩ م إلى ١٠٢ هـ / ٧٢١ م

٧ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى

من ١٠٢ هـ / ٧٢١ م إلى ١٠٣ هـ / ٧٢١ م

٨ ـ عنبسة بن سحيم الكلبى

من ١٠٣ هـ / ٧٢١ م إلى ١٠٧ هـ / ٧٢٦ م

٩ ـ عذرة بن عبد الله الفهرى

من ١٠٧ هـ / ٧٢٦ م إلى ١٠٧ هـ / ٧٢٦ م لمدة أربعين يوما .

١٠ ـ يحيى بن سلامة العاهلى الكلبى

من ١٠٧ هـ / ٧٢٦ م إلى ١١٠ هـ / ٧٢٨ م

١١ ـ حذيفة بن الأحوص القيسى

من ١١٠ هـ / ٧٢٨ م إلى ١١٠ هـ / ٧٢٨ م لمدة خمسين يوما

١٢ ـ عثمان بن أبى نسعة الخثعمى

من ١١٠ هـ / ٧٢٨ م إلى ١١١ هـ / ٧٢٩ م

١٣ ـ الهيثم بن عبيد الكلابى

من ١١١ هـ / ٧٢٩ م إلى ١١١ هـ / ٧٣٠ لمدة تسعين يوما

١٤ ـ محمد بن عبد الله الأشجعى

١١١ هـ / ٧٣٠ م إلى ١١٢ هـ / ٧٣٠ م أربعين يوما

١٥ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى

من ١١٢ هـ / ٧٣٠ م إلى ١١٤ هـ / ٧٣٢ م

١٦ ـ عبد الملك بن قطن الفهرى

من ١١٤ هـ / ٧٣٢ م إلى ١١٦ هـ / ٧٣٤ م

١٧ ـ عقبة بن الحجاج السّلولى

من ١١٦ هـ / ٧٣٤ م إلى ١٢٣ هـ / ٧٤١ م

١٨ ـ عبد الملك بن قطن الفهرى

من ١٢٣ هـ / ٧٤١ م إلى ١٢٣ هـ / ٧٤١ م لمدة ثلاثين يوما

١٩ ـ بلج بن بشر القشيرى

من ١٢٣ هـ / ٧٤١ م إلى ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م

٢٠ـ ثعلبة بن سلامة العاملى

من ١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م إلى ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م

٢١ـ أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى

من ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م إلى ١٧ هـ/ ٧٤٥ م

٢٢ـ ثوابة بن سلامة الجذامى

من ١٢٧ هـ/ ٧٤٥ م إلى ١٢٩ هـ/ ٧٤٦ م

٢٣ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهرى

من ١٢٩ هـ/ ٧٤٦ م / إلى ١٣٨ هـ/ ٧٥٦ م

٢٤ـ الصميل بن حاتم

***

تواريخ مرتبطة بالتاريخ العام
للمسلمين فى الأندلس

٩١ هـ/ ٧١٠ م اتجاه طريف للأندلس

٩٢ هـ/ ٧١١ م حملة طارق بن زياد

٩٣ هـ/ ٧١٢ م عبور حملة موسى بن نصير إلى الأندلس

٩٤ هـ/ ٧١٣ م توقيع معاهدة الصلح بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وتيودومير

١٠٠ هـ/ ٧١٨ م ثورة أهل بيلاج فى منطقة الاستوريين

١١١ هـ/ ٧٢٩ م ثورة MUNSR فى شمال الأندلس

١١٣ هـ/ ٧٣١ م مولد عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك (الداخل)

١١٤ هـ/ ٧٣٢ م معركة بلاط الشهداء

١٢٣ هـ/ ٧٤١ م ثورة البربر فى الأندلس

١٢٥ هـ/ ٧٤٢ م دخول العناصر اليمنية فى الأندلس

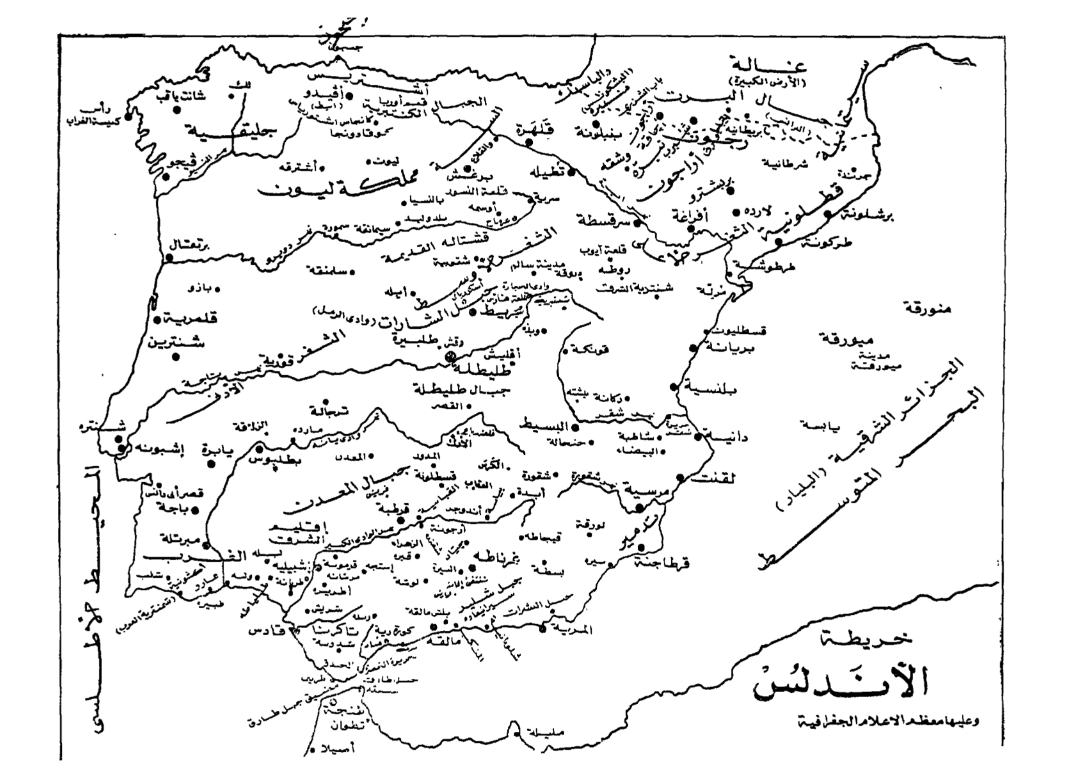
١٣٨ هـ/ ٧٥٦ م دخول عبد الرحمن الداخل الأندلس

قيام إمارة عبد الرحمن

١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م قتل يوسف الفهرى والصوميل

١٦٢ هـ/ ٧٧٧ م حصار شارلمان لسرقسطة ومعركة رونسفو

***



خريطة
الأندلس
وعليها معظم الأعلام الجغرافية
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
مملكة ليون
جليقية
قطلونية
غالة (الأرض الكبيرة)
جبال البرت
جبال الشارات (وادي الرمل)
جبال طليطلة
جبال المعدن
إقليم الشرف
قشتالة القديمة
منورقة
ميورقة
يابسة
طليطلة
قرطبة
غرناطة
إشبيلية
بلنسية
مرسية
سرقسطة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
لاردة
أفراغة
بنبلونة
قلهرة
تطيلة
لقنت
دانية
قرطاجنة
المرية
مالقة
قادس
شنترين
قلمرية
إشبونة
يابرة
بطليوس
باجة
مرتلة
باذو
سلمنقة
أشترقة
ليون
أبلة
شنتمرية الشرق
قونكة
وقش
أقليش
شاطبة
البيضاء
البسيط
شقورة
أبدة
لورقة
بسطة
قيجاطة
لوشة
استجة
قرمونة
شريش
تاكرنا
شذونة
طريف
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة
تطوان
أصيلا
مليلة

مقدمة المستشرقين وكتاب أوروبا
عن الأندلس وعلاقتها بالمغرب
ليفى بروفنسال ودوزى

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

يبـدو أن عددًا ضئيـلاً فقط حتى الآن من بين مؤرخى الإسـلام والمسيحية فى القـرون الـوسطى ، اعتقدوا بأن من الـواجب النظـر بعين الاعتبار إلى تعبير ، هـو مع ذلك سهل وكـافى الدلالـة هذا التعبير : « الغـرب الإسلامى » الـذى حاول المؤرخـون بادى ذى بـدء الدفاع عنه وتسويغ استعماله الجديد ، فينطبق على الكتلة الجغـرافية المتناسقة تناسقًا كافيًا التى ستشكلها أفريقية الصغرى وشبه جـزيرة أيبيريا على تخوم المحيط وعلى جانبى الطرف الأقصى من عالم البحر الأبيض المتوسط .

إن هذا الإصلاح من شأنه أن يثير شيئًا من الوضوح ، ولو فى مسامع قليلى الاطلاع ، جملة تتصف بتناسـق نسبى ، خليطاً يمكن للعناصر الأساسية التى يتـألف منها أن تتميز بسهولة كافية .

فالمغرب الإسـلامى هو قطعة من العـالم القديم توطد فيهـا الإسلام ، بما حمل معه إلى أهلها من بنـاء اجتماعى ومن مثل أخلاقية ومن ثقـافة يمثلها ، هـذه القطعة هى فى نفس الوقت ، أرض قصبـة بعيدة عن المركز ، بالنسبـة إلى المناطق التى شهدت ظهـور الإسلام ومن ثم مطلع وثبته الرائعة .

كان الناس إلى عهد قريب ـ ومازال بعضهم حتى الأن يسمونها « المغرب » وهذا تعبير يبدو ، لأول وهلة ، ممـاثلاً تمامًا لتعبير « الغرب الإسلامى » ومن شأنه أنـه لم ينتظر عصرنا هذا ، ليدخل فى اصطلاحات العرب الجغرافية .

فهل نحن بحـاجـة إلى أن نبين أن اسم « المغـرب » الذى كـان فى الأصل يعنى بـلاد البربر وأسبانيا معا .

كما يبـدو لم يعد يشمل تـونس الحالية ، أفـريقيـة القديمـة ، بل شبه جـزيرة إيبيريـا

أنـدلس العـرب ، وإنما تقلص معناه بسرعـة بحيث لم يعـد يعين اليـوم إلا غرب أفـريقيـة الشمالية .

من الممكن القول بأن فى ذلك جـدلا لفظيا بحتًا ، على الأمـر الذى كان طبيعيـا ـ كما هو معلوم أن أفـريقية الشمالية وأسبانيا قـد نشأت بينهما علاقات سياسية وصِـلات ثقافية يقتضيها الجوار ويسهلهـا ، ولاسيما عندمـا راحت العقيدة الـدينية المشتركـة توجـه بعض مطامع البلدين ، بل وتوحد بينهما .

ولكن ذلك لم يَحُلْ دون قيـام كيـان منفصل لكل من البلـدين ، وأن يكـون لكليهما أنظمته المتميزة ، وسلالاته التى تعادى أحيـانا السلالات الأخرى ، وأن يكون لكليهما بعد هذا كلـه مثل أعلى لم يكف الإسـلام دائما ، لجعله مشتركا بين البلـدين ، فمن الثابـت أنه ليس من المحتمل أن تكون هذه المزاعـم خطـأ كلها ، كـما أنها لا تمثل أيضا الحقيقة التامة « فالغـرب » يؤلف وحده من ضمن العالم الإسـلامى ، على أحد أطرافه القصـوى ، عالماً قائما بنفسـه ، ملاصقًا لأوروبـا المسيحية ، بعيداً ومنفـردًا عن الشرق تفصله عنه المسـافة والحواجز الطبيعية وكثيرًا ما كانت هذه الرحالة الراهنة شديدة الوطأة على مصائره السياسية وأكثر من ذلك أيضا ، مؤثرة فى نظامه الاجتماعى وثقافته .

ولكى يشعر المرء حق الشعور بأن بين مـاكان فى مراكش وجنوب أسبانيا ومـا هو باق إلى الآن ليس فقط مجرد مظهر بسيط ، مبهم من مظـاهر القرابة بينهما ، ينبغى لـه أن يكون قد عـاش سنين طويلـة فى بلد كمـراكش لايزال يحتفظ بطـابع حضارتـه الوسيطـة كما هو وأكثر من تـردده على جنوب أسبانيا ، وأن يكـون شغفا بتفحص الآثار العربيـة فى أشبيلية وقرطبـة وغرناطـة من خلال لجو الرقيق المؤثـر الذى يغمرهـا ، وعليه بصورة خـاصة ، ألا بتنكُر للحدس الحى الذى يرسمه فى الذهن أحيانـا طول معاناته للنصوص الأصلية وتأثره اللاشعـورى بها ، وألا يقص الرؤى العـابرة التى ترتسـم ، على أثر اتصالـه بالـوثائق التى ينشدها ، ثم توضع بـوضوح فى صور حاضرة ومألوفة وأنه يشعر عنـدئذ شعورًا غامضًا فى

البدء ، إن هذه القرابة ليست طارئة ولا يمكن أن تكون كذلك سرعان ما تتوالى وجوه الشبه وتتحدد ثم تفـرض نفسها ، فـالغرب الإسـلامى بمعطفيه ، الأفريقـى والأوروبى ، يبدو شيئًا فشيئًا فى نظر العصر الوسيط من خلال ألوانه الحقيقية ، عاريًا من الصور الغبراء التى كومها على تخوَّمه مؤرخو الكتب الصفراء الذين اهتموا فقط بوقائع مختلف السلالات .

وإن المرء ليكتشف على الرغم من صروف الدهور ، بأن عاصمـة هذا الغرب الفكرية بقيت فى البـدء ، قبل الانتهاء من إعـادة الفتح المسيحى فى أسبـانيـا ، قرطبـة ومن ثم فى عواصم الأقاليم ، وأخيرًا فى غرناطة ويلاحظ بأن أرض الأندلس أيا كان مركزها السياسى لاتفقد أبدًا منزلتها كزعيمة للفكـر ، واحتفظت بكامل إشعاعها بعد أن أخضعها فى قلب الإسلام نفسه ، ملوك أفريقيون وفتنت بسرعة سادتها الجدد الـذين عانوا سحرها فجعلوها محل إقامتهم المفضلة .

وعلى هذا النحـو سيكون فيما بعـد مصير أولئك الفاتحين القسـاة من القشتـاليين فيها فستكون الأندلس سواء لهؤلاء أم لأولئك مـاكانته أثينا بالنسبة لروما عنـدما غدت مقاطعة من الامبراطورية .

ويجدر بنا أن نتذكر كلمات الشاعر اللاتينى ونحن ننقلها إلى هنا : إن اليونان المغلوبة قد استـولت هى نفسها على قاهـــــرها الفتاك Graecid Captd Ferum Victdrum Cepit .

إن تعبير « الغرب الإسلامى » قد لا يجد خصومـا له من أجل تعريفه الخاص فحسب بل إن له خصومًا آخرين مازالوا كثيرين جدًا فى أوربا ، حتى بين الأخصائيين المرموقين فى دراسات العصور الوسطى ، يرون أن إفريقية الصغرى وأسبانيا ، كلتيهما لاتشكلان مطلقًا سـوى امتـدادات شاسعـة وطـلال شـاحبـة للشرق الإسلامى ، هـذا الشرق الـذى يجب الاعتراف بأنهم لايزالون يجهلونه تمام الجهل ولايقدرون حق التقدير الدور الراجح الذى لعبه خلال العصـور فى اقتصاد حـوض البحر الأبيض المتـوسط منذ انهيـار العالم القـديم حتى

الفترة التى شهدت غروب القرون الوسطى و أولى بتباشير النـزعة الإنسانية الناشئة ، ونرى أن الحكم السـابق نفسـه الـذى يجعل مؤرخين كثيرين جـدا يقـدرون بيـزنطـة « بالمقـارنـة بذكريـات روما المظفرة » يدفع هؤلاء المؤرخين إلى ألا يـروا فى المغرب والأندلس ، فى العصر الـوسيط سوى استمـرار هـزيل ، فى انحطـاط سياسى عميـق لعصر الإسلام الـذهبى فى الشرق الذى دونت وقائعه فى سورية ومصر وبلاد ما بين النهرين .

ولا يخطـر لهؤلاء المؤرخين لحظـة واحدة لاسيما فيما يتعلـق بأسبانيـا أن يحاولـوا إظهـار قسطها الهائل فى تطـور العالم الأوربى الغربى ، منـذ القرن الحادى عشر وفى تحسين بعض نواحى الحياة المادية ، وبخاصة فيما فـرضت عليه رويدًا رويدًا ، من شعور بجمال للحياة جديد ، هذه الحياة التى كانت تسيطـر عليها حتى ذاك الحين ، وفى رهبة المجهول صوفية ثقيلة التشاؤم .

و إن المرء ليلاحظ هكذا أى مقدار يوحيـه ويقتضيه من تطورات هذا التعبير « الغرب الإسلامى » والاعتبارات الأولى التى نحاول جاهدين أن نبرهن بها عليه .

ومن الـواجب عدم التردد فى تسميـة الحضارة التى ازدهـرت فيه حتى القـرن الخامس عشر « بالحضـارة العربية الأسبـانية » فإنها إذ نشأت نتيجـة لمؤثرات مختلفة فى شبـه الجزيرة نفسها ، قد طفحت بكـاملها وعلى نطاق واسع على المغرب ، ولم يكن الفـن الذى يدعى بالفن « المغربى ـ الأسبانى » His Pdmo - Mdresque بواحد من أجمل مظاهرها فحسب كما يظن أحيانا فتلك هى العناصر الرئيسية المؤلفة لهذه الحضارة العربية فى أسبانيا والخطوط التى تمنحها أصالتها فى مختلف الميادين ، ما نحاول أن نعينه هنا فى نظرة عامة .

غير أن هذه الدراسة لاتكون مقبولة إذ لم تصحبهـا تحريات جانبية : لنعرف من جهة ما هى التأشيرات التى تكاد مباشرة التى مـارسها الشرق فى داخل الإسلام نفسه على الغرب أو التى أثر بها الغرب فى الشرق ، على نطـاق أضيق بلاشك ، كما يستشف ذلك ؟ ولنتبين من جهة ثانية ما هو التداخل المتبادل بين الإسلام الأسبانى والمسيحية الوسيطة ؟ .

تلك هى المشاكل الخاصة التى نحاول أن نجد بعض عناصر حلها ، طرحناها بإيجاز.

ولعله من الصعب بل قد يكون من الروية ، أن تدخل فى بحث هذه الحضارة الأسبانية العربية دون أن ننظر إليها أول الأمر وبكثير من التمحيص من خلال إطارها الطبيعى الأصيل ، أو دون أن ننبه ولو بصورة موجزة ، إلى تتابع الظروف السياسية التى سهلت نشوء ها وازدهارها .

فإن لم نفعل ذلك فإننا قد لا ندرك إلا بقليل من الوضوح مدى الانتشار المتزايد الذى بلغته سواء فى حدود مجالها الخاص أو فى شبه الجزيرة أو فى أفريقيا الشمالية ، وقد لاندرك كذلك المؤثرات المختلفة التى اقتبستها من الشرق ، أو بالتالى السيطرة غير المباشرة التى كانت لها بدورها على غرب أوربا .

لعلنا فى غير حاجة إذ يكاد يكون متفق عليه إلى ذكر التعقيد الجغرافى فى حديثنا عن شبه الجزيرة الكبرى التى تحتضن أسبانيا والبرتغال الحاليين ، إذ ما من بلاد تؤلف كتلة كهذه فى وضوح حدودها الطبيعية ، وما من بلاد أيضا تفوق هذه البلاد فيما تبديه من متناقضات داخلية فى شكلها الطبيعى وفى مناخها وخصب أرضها .

وقد أشرنا من جهة أخرى مرارًا من قبل إلى وجوه الشبه العميقة التى تتجلى فى التشكل الأرضى لكل من جنوب أسبانيا وشمال مراكش ، هذان البلدان يفصلهما حاجز مائى عميق ولكنه ضيق جدا ، إلا أن المرء لا يستطيع وهو يعبر هذا الحاجز فى أى من جهتيه - ونعنى به مضيق جبل طارق - إلا أن يؤخذ بما يرى من وحدة تكاد أن تكون تامة بين مظهرى البلدين .

فهنا وهناك سلاسل جبلية عظيمة ، تغوص آخر ثناياها فى البحر المتوسط ، ونرى فى هذه الجهة ما نراه فى تلك من مزروعات ومن بساتين الأشجار المثمرة وحقول البرتقال والزيتون ، وأن التشابه ليزداد وضوحًا إذ جاز لنا القول ، فيما وراء هذه الجبال أيضا

فالفيقاس Vegds الأندلسيـة الغنية لها ما يقـابلها فى سهـول « الغرب » Gharb المراكشى الخضراء .

وإذا تـوغلنا إلى أبعـد من ذلك ، نجد أن مـا يقـابل مرتفعـات المانش La manche وقشتالة الجديدة Nouvelle Castille هى مسطحات مراكـش الوسطى إذ أن الفنيين لشد ما بينهما من تشابه متميز ، مازالوا يطلقـون على هذه المسطحات الاسم الأسبانى « ميزيته » Meseta وماذا نقـول إذا عن تجانس التجمعات المدنيـة ؟ فما من مدينـة من مراكش على الإطلاق ، يـأهل ولو جزءًا منهـا الموريسك Morisoques المسلمون ، المطـرودون من أسبانيا ، إلا وتحتفظ بشغف حتى الآن بطابع مدينتها الأندلسية .

أما الدخـول إلى شبه الجزيرة الأسبانية الإيبيرية فإنـه يتم فى أغلب الأحيان عبر إحدى جهتى سلسلة البيرينية ، وما أن يخطو الإنسان إلى الأمام نحو الجنوب حتى يؤخذ بالتضاد بين مناظر البلاد ، تضادًا يبلغ أحيانا حد التنافر وما يلبث جفاف السهل القشتالى العظيم أن يمحى شيئاً فشيئًا ، ومن ثم يتهلل وجه أسبانيا العليا الصارم ليبتسم عندما يصل المرء إلى الأندلس ، أرض المور Mauyes المفضلة الذين احتلوها مدة ثمانية قرون .

إننى لم أتحسس هذا السياق من المشاعر ، عندما وطأت قدماى أرض أسبانيا ، لأول مرة قادما إليها من أقصاهـا الجنوبى ، مبحرًا مباشرة من مراكش ، تلك البلاد التى بقيت محافظة وما تزال متمسكة بحمية شديدة بالإسلام .

ومع هذا فلم يداخلنى أبدًا الشعور بإننى قـد أنتقلت إلى عالم آخر ، فالأودية العميقة والضياع المعلقة فى أعالى السفوح والجو ومشهـد الشارع فى المدن الصغرى ، حتى وأوضاع الناس كل ذلك يتشابه تشابهًا عجيبًا .

فلولا اللباس الذى يـرتديه الأندلسيون اليوم وكـلامهم لأصبح شعور المرء بأنه لم يعبر ممرا بحريا وأنه مـايزال فى إفريقية وَهْمًا تاما ، إننا نحسن منذ البـداية بأن حضارة مشتركة فى إطار طبيعى يقدم وجوه شبه عظيمة إلى هذا الحد ، تتوافر لها جميع الشروط لتقوم بدورها .

وزيادة على ذلك فإن أفريقية الصغرى قد وجدت نفسها مدعوة ، منذ أن وضع العرب يدهم على أسبانيا ، لكى تلعب دورًا هامًا فى عملية الاستيطان فى هذه البلاد : إذ أن العلاقات التاريخية بين البلدين فى العهد الإسلامى ترجع هكذا ، كما نرجع إلى عصور الإسلام الأولى منذ نهاية القرن الأول الهجرى ذلك أن الأندلس سرعان ماستقبلت ، بعد أن فتحها برابرة مراكش ، بادىء ذى بدء لحساب الشرق الإسلامى كثيرًا من العرب الأقحاح وفى نفس الوقت ، عددًا أكبر من الأفريقيين أيضا .

ولم يلبث هؤلاء وأولئك أن تمازجوا اللهم إلا إذا استثنينا بعض الجزائر الصغيرة الجبلية التى بقى سكانها زمنا طويلا مستعصيين على التحول ، وقد شكل أولئك الوافدون نواة الأرستقراطية العربية والبورجوازية فى المدن .

وسرعان ما أخذ عددهم بالأزدياد بفضل رصيد هام جدا ألا وهو المسلمون الجدد أعنى من سكان شبه الجزيرة ، الذين أخذ دخولهم فى دين الفاتحين يتزايد ، يدخلون بمحض إرادتهم فى أغلب الأحيان طمعا فى التخلص من الجزية والاستفادة من ظروف مادية أفضل .

وقد نتج عن ذلك « أن الصلات بين المسلمين القدامى والمسلمين الجدد ازدادت على مر الزمن توثقا وتماسكا بفضل الزواج لذلك فإن عرب أسبانيا الذين كانوا فى العصور التى أعقبت الفتح يفخرون أعظم الفخر بتحدرهم من أجدادهم فى بلاد العرب أو سوريا كان يجرى فى عروقهم جميعا جزء وفير من الدم الأسبانى ، إذ ما من شك أنه كان قد حصل ، فى ظل الخلافة فى قرطبة ، تمازج عرقى هام ، فى المدن على الأقل بين العرب الخلص والبربر والمولدين »

ويقول ليفى بروفنسال فى كتابه « حضارة العرب فى الأندلس » :

إن أمامنا ها هنا مجالاً فى دراستنا للمؤثرات التى سيؤدى تشابكها إلى ولاء حضارة عربية أسبانية أصيلة ، لنعيين نصيب عرب المشرق المهاجرين إلى أسبانيا وما يقابله من نصيب المولدين من السكان الأصليين ، فى تناسق هذه الحضارة .

إلا أننا نقتصر الآن على التنويه اللازم بالمردود الخصب ، الناجم عن «التمازج العرقى» الذى أشير إليه قبل قليل . فمنذ القرن الثالث الهجرى على وجه التقريب أو بدءًا من القرن الرابع ، بالتأكيد أصبح هناك عدد من السكان المسلمين الأسبانيين ، يشكلون بعد أن تكيفوا فى موطنهم الجديد نواة هامة فى مجموع أهالى البلاد العام الخاضعين للإسلام هذه النواة كانت تتزايد باضطراد سواء بالمؤمنين الجدد أو من جراء تيار الهجرة المتدفق إلى شبه الجزيرة الذى سيستمر طويلا يجذب الراغبين فيها أو المكرهين على النفى إليها وقد أخذ هؤلاء الأهالى من المسلمين الأندلسيين باستشعار أصالتهم الخاصة والواقعية سواء فى مراميهم السياسية أم فى حياتهم الفكرية على نحو أشد أيضًا .

ولم يلبثوا وهم المتعلقون بالإسلام وقواعده ومثله الدينى الأعلى تعلقا عنيدًا ، أن تميزوا على نحو كاف فى أهم مظاهر حياتهم اليومية : فى طريقة الملبس والأساليب المهنية والزراعية ولهذا سرعان ما تبدوا للأعين بقية العالم الإسلامى ، على أنهم إن لم يكونوا غرباء عنه ، فإنهم على الأقل إنما يمتون إليه بقرابة بعيدة ، إنهم أشقاء أصبحوا بعيدين بسبب من تراخى الروابط العائلية والإقامة خارج المركز .

ثم تأتى الظروف السياسية لتشجع من جهتها أيضًا على هذا النوع من القطيعة الروحية ، التى تثبتت هكذا شيئًا فشيئًا ، ذلك أن تفكك الدولة العربية الأولى فى الشرق أدى إلى فصل أسبانيا عن سادتها البعيدين وما أن جاء إليها أحد ورثة أولئك السادة الذين سقطوا من السلطة حتى قدمت نفسها إليه ، ومنذ ذلك الحين منحت ذاتها صفة المملكة الخاصة ، المستقلة عن كل من أفريقيا وآسيا . حتى نهاية القرن الثامن ، لم يكن تاريخ أسبانيا الإسلامية فى الواقع أقل غموضا من تاريخ بلاد البربر فى الغرب .

فالذين كانوا يعملون أو يحاولون العمل على احترام سلطة الرئيس المشترك المقيم فى دمشق هم ولاة من العرب ، تلك السلطة التى ما فتئت أن صارت اسمية .

ولم يكن الغرب الإسلامى يشكل فى ذلك الوقت إلا مجموعة من المقاطعات فى دولة

متسعة الأرجاء لم يَصُلْ بها الأمر حتى تفككت أوصالها فتجزأت إلى إمارات مستقلة .

واقتنص مؤسسو الممالك حصة الأسد ، وإذ أسقط رد الفعل العباسى البناء الأموى فإن سوريا ودمشق قد اتجهتا جهة بغداد والعراق . ولازمت هذا التغيير فى نظام الحكم بالضرورة اضطرابات عديدة ، وارتحل عن المشرق كثير من المتذمرين ومن ذوى المراتب العربية القدامى ومن الذين فقدوا امتيازاتهم وأعطياتهم ، يجذبهم المغرب .

وهكذا قدم من هناك أحد أمراء البيت المروانى ، يسعى فى الطرف الأقصى الآخر من العالم الإسلامى ، وراء طالعه . كانت مراكش إذا مقرا جميلا ، للاستيلاء إلا أن الإسلام كان قد أصيب فيها بنكسة عابرة .

ذلك أن القبائل التى ما كانت تدخل فى الإسلام حتى أثيرت بدعاية الخوارج ، قد تمكنت من استعادة حريتها القديمة بقوة السلاح فاستيقن القادم الأموى ، عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام من أن الرياح غير مواتية له أبدًا فى أفريقية ، ولذلك يمم وجهه شطر أسبانيا فاستولى على هذه البلاد وأطاح بالحكم العربى الذى كان يديرها مستقلا بصفة أمير من قرطبة ولما تزل سلطته واهية .

وأسس تلك الدولة الأموية التى أصبحت ذات مجد أثيل بل على الأصح ، أنه أعاد فى الطرف الأقصى من الغرب الإسلامى ، بناء دولة أجداده فى دمشق .

وسقطت قرطبة فى حوزته منذ عام ٧٥٦ أى بعد مرور أقل من نصف قرن على دخولها فى سلطة الفاتحين العرب : فجعل منها عاصمته واجتهد فى أن يضفى عليها مظهر العاصمة الأم ، التى طرد منها وقد سبق أن لقحت أسبانيا قبل قليل بقدوم جند Baldj « بتقليد سورى » وأخذ يتغلب فى البلاد فى ظروف سنعود إلى بحثها .

وقدم إلى ما وراء المضيق ، شرقى فار كذلك من سلالة الرسول ، هو إدريس يحاول حظه فابتسم له الأمر الذى سيساعد ابنه من بعده إدريس الثانى فى عام ٨٠٨ على تأسيس مدينة فاس التى أعدت لتكون عاصمة لملكه .

وأسكنها عناصر مدنية أجليت من مقارها الخاصة على أثر بعض الظروف السياسية : أولهم من أهل القيروان ، جاءوا إليهـا من إفريقية Ifrkiya التى مازالت مشبعة بالمؤثرات الشرقية ، ثـم تلاهم المرابطـون من قرطبة ، الـذين أجلاهـم عن أسبانيـا عام ٨١٧ الأمير الأموى الحكم الأول فانتهى تطوافهم فى فـاس بينما استمر فريق منهم فى سيره ، كان أبعد همة من رفاقهـم التعساء فاجتـاح الإسكندريـة على حين غفلة وأخيرا انتهى إلى الإقـامة فى جزيرة كريت حيث أقلق سلطة بيزنطة سنين عديدة .

ثم يأتى بعد ذلك القـرن التاسع حاملا معـه لأسبانيا المسلمة وكذلـك للمغرب أيضا عصرًا شديد الاضطراب .

ويبذل حكام قرطبة جميع قواهم لإعادة الهدوء إلى ممتلكاتهم ، إلا أن حكم عبد الرحمن الثانى جاء متوافقا مع فترة كافيـة من التهاون النسبى حيث تكشفت كما سنرى عن فاعلية فكرية استثيرت بفعل المؤثرات العباسية غير المبـاشرة إذ أن الأمراء الأمويين أخذوا يواجهون مؤامـرات خفية ألبت عليهم أكثرية رعـاياهم : وكان هؤلاء الخارجـون على سلطتهم كبار قادة الأرستقـراطية العسكريـة من الجند وسكان الجبال من البربـر الذين بسطوا يـد العون شأنهم فى ذلك شأن عـرب السهـول لتأييـد الحركات القـوميـة التى شنهـا حديثـوا العهـد بالإسلام بمساعدة عناصر الشعب من الجماعات المسـيحية المستعربة Mozdydbes .

وكثيراً ما كـان الخطر مـاحقاً فنـرى أمراء قـرطبة يغـالبون على قـدر استطاعتهـم أشد الصعاب فتكًا .

وهكذا فإن تاريخ البـلاد السياسى كان يبدوا وكأنما يخيم عليه تهديد الـرعايا المولدين والمسيحيين ودائم التعرض أيضا لـلأخطار التى يستثيرها أحفاد العـرب والبربر . لهذا فإننا فى غنى عن الإشـارة إلى الثقـافـة الأندلســية كـذلك قـد عـانت فى نفس الـوقت بعض الاسترخـاء : إذ إنها كـانت بـالكـاد قـد تجاوزت سن التكـون والنمـو . غير أن الـوضع السياسى أخذ يتبدل منذ سنى القـرن العاشر الأولى ذلك أن هذا القرن سيسجل فى الواقع

ذورة الحكم الأموى فى أسبانيا مقترنا باسم عظيم هو اسم عبد الرحمن الثالث الناصر ، فإن حكمه الطويل يقابله فى أخبار مسلمى شبه الجزيرة ، ازدهار رائع فى جميع مظاهر الفكر ومع هذه الفترة على هذه الانطواء ة نجد بيانها فى قرار عبد الرحمن الثالث فى عدم احترام ماكان يدعى « رمز الخلافة » شأنه فى ذلك شأن فعل أسلافه حتى الآن ، وذلك بفصل الدولة الأموية الأسبانية عن باقى « دار الإسلام » التى كانت كلها ، من حيث المبدأ تخضع لسلطة الخليفة القائم الروحية زعيم الإسلام .

كان الاستمرار فى ذكر اسم الخليفة المقيم فى بغداد لا اسمه بالذات يزعج هذا الأمير العظيم فى خطبة الجمعة التقليدية ، لذلك فإنه انتحل الألقاب السامية التى كان يحملها منذ قرنين ماضيين أجداده فى دمشق : لقب الخلافة وأمير المؤمنين فلم يكن هذا العمل لمجرد ما للرمز من قيمة لا ولا مدى سياسيا بسيطاً ، وإنما يبدأ منذ هذا التاريخ فى الحقيقة رقى الحضارة الأسبانية ـ العربية الأصيل التى تستمر فى تألقها على مر العصور القادمة تلك الحضارة التى بقيت حتى ذلك الوقت مفعمة بالمؤثرات الشرقية .

كان قرار خليفة قرطبة الجديد الذى اتخذه : سواء فى إعلان استقلاله الدنيوى أو فى صدارته الروحية ، فى وجه بقية العالم الإسلامى قد أملته عليه بصيرته الحذرة ـ على وجه الدقة . على أثر ظهور الحركة الفاطمية وانتصارها المظفر فى شمال أفريقية ، ذلك أن كثيراً من بلاد الإسلام شهد فى هذا العصر انفجار نوع من حُمياة المذاهب الدينية إذ ظهرت إلى الوجود عقائد سرية جديدة وكانت تستخدم فى أغلب الأحيان وسيلة أو مرتقى لثورات سياسية .

فبعد أن أتم الفاطميون فتحهم الجديد مصر ، وأغرتهم على اتخاذها مقرًا نهائيًا لهم أصبح هؤلاء الحكام الجدد لإفريقية ، إذا استووا سادة على أفريقية الصغرى وصقلية ووادى النيل كله ، سيشكلون خطرًا جسيماً وداهما على الدولة الأموية فى أسبانيا ، لهذا كان على أمير قرطبة العظيم أن يهتم بشتى الوسائل لتجنب الخطر الفاطمى الذى بات يخشاه

وهو الأمير الذى كان يمثل فى الغرب تقاليـد الإسلام الأولى والسنة الدينية الصحيحة معا وقد أصبح سيدًا فى مملكة واسعة الأرجاء ، غنية آهلـة بالسكان ، عاد السلام يرفرف عليها وأخـذ مناهضـوه فى التقلص شيئًـا فشيئًا فإن لم يسهـر عليها سهـرًا حـازمًا يطغى عليهـا الفاطميون الذيـن بثوا فيها خفية دعاتهم ودعاويهم و إنه عنـدما اتخذ قراراً ليس فيها يتعلق بـالاحتياطـات العسكريـة اللازمـة لـلأمن والتى يستدعيهـا الوضع الخطـر فحسب و إنما بانتحال صفـة الخلافة السامية أيضا ، قد خلق مـن أسبانيا بلدًا إسلاميًا جـديدًا ، مملكة متينة البنيان متحررة من آخر ما كان يربطها من الالتزامات ، حتى ذلك الوقت ببقية العالم الإسلامى ، دولة قوية تستطيع دول أوربا المجاورة التعامل والتداول معها .

فإن بابا جـديدا للمخالفات السيـاسية والمبادلات الصناعيـة قد انفتح إذًا ، وكذلك أيضًا ــ كما نستطيع التخمين للتبادل الفكرى ولكى تقـــوم المؤثـرات الحضارية بـدورها المتبادل .

إن أعظم متمم لهذا التقليد فى تشجيع الثقافـة الذى بدأه عبد الرحمن الثـالـث هو ابنه وخليفته الحكم الثانى كما سنرى .

وقد جاء متأخرًا إلى العرش فكانت مدة حكمه قصيرة جدًا ، أما رجل التوسع الأموى وأشد الأمويين فاعلية فى ذلك فإنه الديكتاتور المنصور بن أبى عامر الذى يأتى بعد قليل : ذاك الشهير فى أخبار أسبانيـا المسيحية وأناشيدها الرقيقـة ففى ظل حكمه الفعلى توصلت سلطة أسبانيا العربية إلى قمة مجدها فى العالم الغربى ، ومن ثم ما لبثت بعد موت المنصور بسنوات قليلـــة فى مطلع القرن الحـادى عشـر أن قامت فجأة حـرب أهلية لم يسبق لها مثيل ، أطاحت عاصفتها إلى الأبـد بالبناء التى أقامته المملكة الأمويـة وأجْلَتْه عن قواعده ذلك على أثر تسرب القواد البربر والصقالبة تسربًا غير محدود إلى إدارة شئون الدولة .

وهكذا فقد تشكلت فى كل جهـة من جهات شبه الجزيرة إمـارات مستقلة ، وسرعان ما أمسك حكـام هذه الإمارات ـ الذين يـدعون بملوك الطوائف ــ بعضهم بخناق بعض

وألحق بهم الأقـوياء منهم الضعفـاء ممتلكـات أو أخضعوهـم لولاء مهين وذى تكـاليف بـاهظة ، وكـانت موجـة « إعـادة الفتح » المسيحى التى عرف الأمـراء الأول ، والأمويـون الأخيرون بقوتهم ، كيف يحبسونها طيلة قرن كامل ، قد أخذت فى ذات الوقت تتقدم ببطء وإنما بقدم ثـابتة . وأفـاد من ذلك الوضع المضطـرب أمير قشتالى عظيم ، اسمـه ألفونس السادس برباطة جأش وصـلابة لانظير لهما ذلك الأمير الذى يختفى ظلماً وراء شهرة السيد كامبادور قائده التمرد .

وأخيرًا سقطت فى عام ١٠٨٥ طليطلـة عاصمـة القوط الغربيين القـديمة فى يـد هذا الأمير وغدت من جديد مسيحية إلى الأبـد، وهى التى أصبحت فيما مضى مركزًا من أكثر مراكز الحضارة الأسبانية ـ العربية إشعاعًا .

وعلى عكس ما قد يحق للمـرء أن يتوقعه ، فإن الثقافة الأنـدلسية لم تكن بلا ريب فى يوم من الأيـام ، أكثر أزدهـارًا وخصبًا منها خـلال هذا القـرن الحادى عشر وهو مع ذلك القرن المترع بالاضطرابات السياسية ، قد هزته فى أعماقة المنازعات الداخلية والتقدم الثابت فى حركـة « إعادة الفتح » المسيحى ، وقد أتمت أكثـر عواصم المقاطعـات أهمية بما لها من فاعلية فنية وأدبية تهاوى قرطبة الذى بات نهائياً تقريباً . وغدا بلاط ملوك المسلمين فى كل من طليطلة وبداجوز Badajoz وفلنسية ودانيا والمرية وغرنـاطة وعلى الخصوص فى أشبيلية فجميعها على حـد سواء أماكن لاجتماعـات أدبية يتحلق فيهـا الشعراء والأدباء والفنـانون والعلماء الفلاسفـة والأطباء وأخصائيون حقيقيـون فى العلوم ، ويعملون فى ظروف مـادية ميسرة حول أمراء حماة مسنيرين بالأدب والعلم . وجـدوا فى صحبتهم خير عزاء لمشاغلهم اليومية فى إدارة الحكم .

حقاً إنـه عصر انحطاط سيـاسى عميق وإنما يلازمـه تجدد فى نتاج الفكـر لا مثيل له والأمثلة على أوضاع مماثلة كثيرة سواء أكان فى داخل العالم الإسلامى أم خارجه .

وقد هبط خبر سقـوط طليطلة على أكاديميات الأمـراء هذه هبوط الصاعقـة إذ هوى

بالأمـراء المسلمين إلى الأرض ، أولئك الأمراء الـذين بددوا قواهـم بعضهم ضد بعض فى مشاحنـات دامية وأفرغـوا رصيدهم المخصص للحرب وأثقلـوا كاهل رعايـاهم بمطالبهم الأميرية . وعنـد ذلك فقط تبدت فى نظرهم مراكش ، مـراكش التى لم تكن تبدوا أغلب الأحيان فى نظـر أسبانيـا ، حتى ذلك التاريخ إلا فى ثوب البلـد المتأخر تتلـوها فى مضمار الحضارة من بعيد لا تصلح إلا إلى تغذية جيوشهـا بالمتطوعين فإذا بها الآن تقوم فى نظرهم بدور المنقذ .

وكان الصحراويـون الذين قدموا من مناطق قـاحلة فى الموريتانيا قد أقـاموا فيها قبل ذلك بوقت قصير دولة هى دولة المرابطين . وكان أميرهم يوسف بن تاشفين قد انتهى أيضًا إلى فتح المغرب وتنظيمه .

فإلى هذا الأمير اضطرت الأندلس إلى أن تتوجه طـوعا أو كرها وإن كان عملها هذا لم يخل فى الحقيقة من بعض التأفف ، لتتوسل من أجل دفع الخطر المسيحى الداهم أكثر من أى وقت مضى .

كان هـذا العمل - إذا أمكننا القـول عندئذ ثأرًا سياسًيا لأفـريقيا المسلمة من أسبـانيا المسلمة ، ولكنه بالنسبة للحضارة - كان أيضا بـداية سيطرة جديدة للثقافة الأندلسية على مراكش على نحو أقوى من أى زمن مضى ، وقد سدد يوسف بن تاشفين الذى قبل العبور إلى أسبانيا لنجدة الأمراء المسلمين ضربة دامية للجيـوش المسيحية فى هزيمة الزلاقة فى ٢٥ تشرين الأول من عام ١٠٨٦ أى بعـد سقوط طليطلة فى يـد ألفونس السادس بعـام واحد غير أنه لم يحسن الاستفادة فى الحال من هذه الهزيمة ضد المسيحية .

وكان لهذا النصر الـذى أحرزه الإسـلام صدى عظيـم فى كافـة أرجاء شبـه الجزيرة . فتبادل أمـراء الطوائف التهانى وفـاضت قريحة الشعـر لدى شعراء المديح . ثم عـاد المنقذ المراكشى ، مظفرًا إلى دياره ، إلا أن هجوما مسيحيا جديـدًا اضطر أسبانيا الإسلامية بعد بضعة شهـور إلى دعوتـه من جديـد ولكنه رجع هـذه المرة لعزل كـافة الأمـراء الأندلسيين الصغار عن عروشهم وضم جميع ممتلكاتهم إليه .

وكان أول الذين جردوا من أملاكهم المعتمد الشهير ملك أشبيلية الشاعر فذهب إلى جنوب مراكش ليقضى فى المنفى حزينا بقية أيامه فى البؤس ، وأصبحت مملكة قرطبة القديمة مقاطعة جديدة فى دولة المرابطين منذ ذلك الحين حتى نهاية القرن الحادى عشر تنحط الأندلس سياسيا ، ليست تكون غير جزء من دولة إسلامية كبيرة لم تعد قرطبة أو أشبيلية عاصمة لها وإنما مراكش .

إن حكم أمير المرابطين الثانى على بن يوسف قد شهد أكثر من حكم والده مظاهر اتسام الدولة المغربية بالطابع الإسبانى ، وعاد هذا العاهل المتحدر من أم أندلسية إلى تقليد الحرب ضد الكفار أولئك الذين شهد أواخر القرن الحادى عشر نجاح تكاتفهم فى شبه الجزيرة الأيبيرية . وكان من أثر وجود جيوش المرابطين على الحدود الإسلامية أنه أعطى سكان تلك البلاد من جديد الضمان لأمن لم يعرفوه من قبل .

فاستعادت الأندلس فى فترة هذا السلام نشوتها بالحياة واهتمامها فى المحافظة على شعرها وتأثيرها الثقافى ، فى وقت واحد على أرضها الخاصة على بقية ممتلكات سادتها الجدد وعبر المضيق عندئذ كثير من الأسبان ابتغاء للاستقرار بقرب السلطان ، فحوّلوا البلاط البربرى الصغير فى مراكش إلى مركز أدبى وعلمى جدير بأولئك الذين لمعوا فى شبه الجزيرة فى القرون السالفة فى قرطبة ، وفى عواصم المقاطعات . ولم يكن سلطان المرابطين ليفارق حاشيته من الكتبة ورجال الفقه الأندلسيين الذين أصبحوا أكثر مستشاريه السياسيين نفوذا .

ودلّ هؤلاء وأولئك بالرغم من ابتعادهم عن وطنهم ، على أنهم روّاد أشداء ودعاة مغالون للثقافة العربية الإسبانية المؤتمنين عليها .

وسرعان ما رانت ظلالة هذا المشهد : ذلك أن علماء الفقه الأسبان فى بلاط المرابطين قد جعلوا سادتهم يشاركونهم تمسكهم التقليدى بعقيدة فقهية جامدة ، مع أن إسلام المشرق كان فى تلك الفترة قد تطور تطورًا كبيرًا فيما يختص بحرفية عقيدته الدينية إن لم يكن

فى روحها حيث نرى عقلا كبيرا كالغزالى لا يتـــهيب من أن يعطى عنوانا لكتابه الرئيسى : « إحياء علوم الدين » . وسرعـان ماتصبح محاربة هذه الميول وسيلة لنشـوء حركة الموحدين ونجاحهـا ، تلك الحركة التى كـانت تستند فى الأصل على إصـلاح دينى وخلقى بينما هى معدة لدعم مآرب سياسية فيما بعد .

ولم تكن أسبانيا المسلمة لتشهد هذه الحوادث دون مبالاة ، ذلك أن هذه الحوادث إذا أعادت إليها شبه استقـلال عابر ستؤدى إلى سقوط المرابطين ، وإقامـة مملكة جديدة هى مملكـة المؤمنين . إلا أن ذلك لم يكن بـالنسبـة إليها أيضـا يعنى إلا تغييرًا طفيفـا فى نظـام الحكم .

وكـان شأن ســادة الأنـدلس الجدد وهم من الأفـريقيين أيضـا شـأن أولئك الـذين أسقطوهم من الحكم أن خضعوا بسرعة بطابع أسبانيا .

وقد سجل الموحدون فى سجلات وقائع أسبانيـا الإسلامية التى أخضعوها دون عناء لعقيـدتهم ولشكل حكمهم الخاص انتصـارات عديـدة كأسـلافهم المرابطين . وفى ذلك الوقت كانت « إعـادة الفتح » المسيحى تتقدم بصورة جلية فى جنـوب شبه الجزيرة بفضل الجهود الموحـدة التى بذلها كل مـن ألفونس الثامـن ملك قشتالـة والفونس الثانـى ملـك أرغونة .

غير أن جيوش الإسلام فى أسبانيا انتصرت أيضا فى ١٨ تموز ١١٩٥ فى معركة الأركوس Alarcos لكن هذا الانتصار كان آخـر انتصاراتهم الكبرى إذ ما لبث الثأر المسيحى بعد سبعة عشر عاما أى فى سنة ١٢١٢ أن ألحق بها على يـد لاس نيقاس القرلوزى سلسلة من النكبات الجسيمة .

كذلك كـان الموحدون كأسلافهم المرابطين إن لم يفوقهم أيضـا بناة عظاما فى أسبـانيا وفى مراكش على حـد سواء فمدينتا مراكـش والرباط فى شمال أفريقيا هما إلى حـد ما من صنعهم ، وقـد خلَّفوا فى أشبيليـة مـدينتهم المفضَّلـة الجيرالدا أو البرج الـذهبى . وكل

آثارهم ضخمة توحى بالجلال شيدت على نحو رائع ومتناسق ، إنها عبوس عارية من الزخرف تتأفف من عبارات المديح لأى أمير ، ولاتقبل إلا برُقُم مناسبة تمتد عرضانيًّا على شكل أقارير قرانية .

ولدينا الدليل هنا وهناك على أن هذه الآثار هى من عمل مهندسين معماريين مسلمين من أسبانيا : إنهم هم أيضا دليل رائع ، خالد على مر العصور على قوة أثر الغرب الإسلامى فى أسبانيا فى العصور الوسطى ، وعلى مركز الصدارة التى عرفت الثقافة الأندلسية كيف تحافظ عليها فيها .

لم يدم تألق طالع الموحدين طويلا بعد حكم مجيد مثل حكم عبد المؤمن وحكم يعقوب المنصور . ذلك أن « إعادة الفتح » المسيحى لم يعد يجد بعد زوال هذا العاهل الأخير عقبات كثيرة فى أسبانيا تقف فى وجهه . إذ تنشأ الفتن داخل الأسرة الحاكمة نفسها تجر فى قلب الدولة إلى اضطرابات خطيرة سرعان ما تؤدى إلى انتفاض ممتلكاتهم الأندلسية ضدهم . ثم تتشكل مرة أخرى فى شرق شبه الجزيرة وجنوبها إمارات إسلامية صغيرة فى فالنسيا ومرسيا ونيبلا Niébla ، إلا أن المعارك المسيحية أخذت تكسب بضربة تلو ضربة نجاحات مدوية . وفى عام ١٢٣٦ سقطت قرطبة عاصمة أسبانيا العربية وقاعدة بناء الخلافة الشهيرة بيد فرديناند الثالث . ومن ثم كان جاك الأول ملك إرغونة يستولى على جزر البليار ويمحى من الوجود مملكة فالنسيا العربية بينما كان ملك قشتالة يخضع من جهته مملكة مرسية الإسلامية ، ويحاصر أشبيلية التى استسلمت أخيرا عام ١٢٤٨ .

وسوف لايبقى من الإسلام فى أسبانيا سوى إمارة تقلصت إلى حدود ولاية غرناطة حيث تتوطد حوالى منتصف القرن الثالث عشر أقدام النصريين الأسرة العربية الصغيرة .

وراحت مملكة غرناطة تلك التى كانت جميع أمرائها تقريبا ضعافا يتمتعون بسلطة مرجرجة تتعرف على حياة فكرية مترعة فى عاصمتها وفى مدينتيها الكبيرتين : مالاكا وألمرية فى القرن الرابع عشر بصورة خاصة ، وكان ملوكها ينشئون بدافع عاطفى الروائع

الفنيـة التى لا مثيل لها من الفن الأسبـانى ـ المغـربى والتى يشير ذكـر أسمائهـا مجردًا إلى عظمتهـا : الحمراء وجنـة العـريف Generalife, . أمـا الشعـر وأمـا النثـر الفنى فإنهما يتجليان فى ابن الخطيب وفى حلقة الكتَّاب التى كانـت تحيط به فى ذات الوقت الذى كان فيه عبد الرحمن بن خلدون وهو من أصل أسبانى أيضا يتأمل فى المغرب المسائل الاجتماعية التى سيطرحها ويحلها فى مقدمته الشهيرة .

سينقضى قرابة قرن أيضا قبل أن يكلل ملكا الكاثوليكية فرديناند الأرغونى و إيزابيللا القشتالية حـركة « إعادة الفتح » بالنجـاح ، إلا أن الحضارة العربية الأسبـانية لم تغرق فى العدم عندمـا فتحت غرناطة أبـوابها لهذين الملكين فى الثانى من كانون الثـانى عام ١٤٩٢ وارتفعت راية القديس جاك على قمة الحمراء . إنها سوف تستمر فى ممارسة تأثيرها بعمق لا بل أكثر من ذلك فإنها ستتابعه فى أسبانيا المسيحية نفسها دوما .

وتشاء الضرورة أيضا بأن تستمر إلى حين طرد المغاربة نهائيا ثم تنقل بعد ذلك مراكزها حفاظـا على بقية من إشعـاعها صوب الشـواطىء الأفريقية وبصـورة خاصـة إلى مراكش وتونس .

وبسبب من ذلك فإن التقاليد الأندلسيـة مازالت حتى الآن باقية على حالها فى بعض من قرى السـاحل التونسى وعلى وجـه الخصوص فى غـالبية مـدن الشمال المراكشى . وقد تكون هـذه التقاليـد قد بقيَت حتى الآن أبعـد أثرا وأكثر تميـزا فى الربـاط مدينـة الساحل الأطلسى وهى التى عـاد إلى استيطـانها فى القـرن السادس عشر المغـاربـة (الموريسك) المهاجرون من منطقة قرطبة . ذلك أن غالبية المسلمين من الطبقة البورجوازية فيها مازالت تحمل أسماء أسبانيا صرفة مثل فارقاس ، بالا مينو ، موريفو ، روى دياز ، لوبيز بيريز أو أسماء مدن شبـه الجزيرة أيضـا كاسم رونـدا ودينيا . و إذا كان ليس فى مظهـرهم الخارجى مـايفرقهم فى شـوارع المدينة عن سـائر المراكشيين الأصلاء ، فإن نمط حيـاتهم فى داخل بيوتهم قد بقىَ محافظا على طابعه الأندلسى . إن زوجاتهم يعاملن معاملة أفضل ، يدخلن

فى المناقشات العائلية ولا يعانين أكثـر الأوقات من وجود ضرة إلى جانبهن ، وطريقتهن فى تهيئة أنواع الطعام تختلف اختلافًا بينًا عن طرائق سائر البلاد ، كما أنها أنواع غالبا ما تحمل أسماء من أصل رومـانى . إن هـؤلاء الأسبـان المسلمين هم الحفظـة أيضـا لبعض الفنـون الحرفية ، فالـدراسة لاصطلاحات الحرف فى المدن المركشيـة تدل بالإضافـة إلى ذلك دلالة واضحة على نصيب التقليـد الأسبانى كلـه سواء ما يعـود منه إلى الـرومان أم الموريسك ، وحيث إنه ليس ما يمنعنـا من التفكير على أن الاحتلال الطويل لشبه الجزيـرة الأيبيرية قد خلف فى هذه البلاد طابعا بعيد الأثر ، فإن تأثير أسبانيا يتسم أيضا بالمقابل .

حتى الآن حضارة المدن المراكشية فى كثير من مظاهرها ، وكذلك أسلوب حياة سكان المدن من الطبقة البورجوازية . إن العلاقات بين أسبانيا وبين بقية الغرب الإسلامى ماتزال على هـذا النحو حيَّـة عبر أكثـر من خمسة قـرون خلَت على شكل مـا حتى خارج نطـاق التقليد الفنى والأدبى . قد بدأ تطور غرب أفريقياالصغرى الحاضر فى محاولة التخفيف منه بنجاح لا بأس به .

لقد حـاولنا فيما تقـدم من هذه النظـرة الجلية أن نستخلص مـراحل تاريـخ الحضارة الأسبـانيـة ــ العـربيـة الكبرى فى العصـور ا لـوسطى وأن نضعهـا فى الإطـار السيـاسى والاجتماعى ذلك الإطـار الذى تكـونت داخله فى الغـرب الإسـلامى ثم فرضت نفسهـا ، آخذة بأهداب الشعور بقوتها وحيويتها بالتدريج . فقد يصبح تكديس جملة من المسلَّمات مختارة ممـا بين أيدينا من نتـاج الثقافة المتـواصل الممثلة بهذه الحضـارة ضربا من العبث إذا أردناه الآن . إذ سرعان ما يتخذ ذلك فى مثل هذا الوصف التخطيطى شكل تعداد بسيط لـلأسماء والعنـاوين والأفضل منه بـلا ريب ألا نتعـرض إلا لتلك التى كـانت من هـذه المؤلفات أبعدها أثرًا فى مجالات الفن والفكر وذلك عنـدما ندرس ما هى المؤثرات التى أثر بها العالم الإسـلامى الشرقى على الثقافة العـربية الأسبـانية مباشرة أو بصـورة غير مباشرة ، وكذلك تلك التى كانت مدعوة لتقبلها من أوربـا المسيحية أو أكثر من بلد أيضا لممارستها لها بالمقابل . إن الأسماء الكبرى التى يـؤكد ترداد ذكرهـا على أنها لاتنفصل من دراسة هذه

الحضارة تصبح على هذا النحو أقل انعزالاً مما لو جاءت فى عرض جاف للوقائع التاريخية يُخشى أن يبعث بسرعة الملل فى ميل الاطلاع ، وألا تكون بها سوى قيمة مستندات بسيطة ، ويصبح من الجرأة أن نحاول من جهة أخرى إظهار الصفات الأصلية الخاصة بهذه الحضارة دون أن نبين فى الوقت ذاته مدى ما كان لتقليد الكلاسيكية الشرقية العظيم فى أسبانيا ، هذا التقليد الذى ثابرت أسبانيا على تمسكها به بدقة والذى بات من الضرورة ظهوره فى كل سانحة فى أكثر فروع المعرفة التى تلقتها واستنبطتها .

كذلك فإننا سنقتصر الآن على بحث مقتضب فى آداب الطبقة النبيلة التى اجتهدت هذه الثقافة الأندلسية فى كثير من الأزمنة المتباعدة ، وهى بكامل وعيها لقيمتها الحقيقية فى أن تمنحها لنفسها بواسطة أقلام بعض المعبرين عنها ، وإن هذه الآداب النبيلة لم تحقق رفعة شأنها فى أرض الغرب الإسلامى كلها فحسب ، بل ومشاركتها الموصولة أيضا فى الجهد التأملى الضخم الذى سيؤدى فى العصور الوسطى إلى الإنتاج الهائل فى الأدب العربى .

وعندما نفحص بصورة خاصة وجهة النظر الأخيرة هذه يجب أن نبين بأنها لم تكن بعيدة عن الاهتمامات البالغة التى عاناها بعض من مسلمى أسبانيا المتسبين فى الأصل إلى طبقة المولدين الاجتماعية ، وفى وسعهم أن يتألموا إذا اقتضى الأمر من اجتياز العرق من جانب مواطنيهم الأندلسيين المتحدرين من أرومة عربية صرفة . ولم يكن هؤلاء المسلمون الجدد (المولدون) غير ناكرين لأصلهم فحسب ، ولكنهم إلى حد ما كانوا يستمدون منه فخارًا .

فبينما كانوا ينادون بأنفسهم إبطال السنة الإسلامية والتفوق الذى لايبارى فى لغة القران ، فإنهم أبوا أن يعترفوا لممثلى العرق العربى الأصيل بالصدارة الروحية .

تلك هى المسألة التى سببت فى الحركة المعروفة بالشعوبية ، وقد طرحت شذرًا حيثما كان فى أرجاء العالم الإسلامى ، واصطنعت بحسب الأمكنة أشكالا مختلفة حتى إنها لم

تخل فى بعض الأحيان من مطامح سياسية أو دينية كما كان شأنها لدى الخوارج والفرس .

وفى دراسة جديرة بالتقدير نشرت فى أواخر القرن الماضى أوضح غولدزيهر كيف امتدت هذه الحركة الشعوبية إلى أسبانيا الإسلامية وظهرت فيها وتطورت .

وكان عليها فى ظل الثقافة الأندلسية أن تلهم فى القرن الحادى عشر صراعًا أدبيًا بين ابن غارسيا Ibn Garcia الأندلسى وبين عديد من المعارضين من مواطنيه : وقد نقل إلينا الكاتب ابن بسَّام صدى هذا الصراع فى منتخبه الأدبى الكبير الذخيرة وقدم إلينا تلك المناظرات .

ومن المحتمل أن يكون موضوع « فضائل العرب والعجم » قد أثير فى أسبانيا من قِبَل العرب وغير العرب مرات عديدة .

وقد قدمت هذه الحركة ببذلها طاقة فائقة البرهان على أن الحضارة العربية قد ولدت فى وسط تناسق موفق يتألف من مشاركة الكلاسيكية المشرقية ، ومن عناصر جديدة مستقاه من البلاد نفسها من بين أولئك الذين مازالوا يطالبون باعتزاز بماض وبتقاليد ثقافية سابقة على الإسلام على الرغم من إطباق العبقرية العربية عليه .

كذلك فإن المفكر الكبير ابن حزم وهو الذى شهد سقوط الأسرة الأموية فى قرطبة قد رأى نفسه مدعوا لاتخاذ موقف من هذا الصراع طيلة حياة كانت مضطربة المجرى بقدر ما كانت غنية ، إلا أن موقفه كان على نحو مختلف إلى حد ما وذلك من أجل الرد على انتقادات أحد كتاب القيروان الذى كان يعيب على المثقفين الأسبان ظهورهم بمظهر المستخف لأعمال ملوكهم السامية وعدم محافظتهم على ذكرى انتصاراتهم الأدبية . فالرسالة التى ألفها ابن حزم فى هذه المناسبة تقدم لائحة تصنيفية مقيِّدة لثمار الفكر الأسبانى ـ العربى : إذ يأتى فيها على ذكر المؤلفات الرئيسية مشيراً بفطنة إلى قيمتها وهى تلك التى ساهم فيها الأندلسيون حتى زمنه ، فى بناء الآداب العربية الجليل سواء فى العلوم الدينية أو الزمنية .

كان الهجاء الذى قوَّمه ابن حزم قد صدر عن القيروان كما رأينا ، ولم يكن وضع الأمور فى نصابها على هذا النحو خاليا من الميل . كما أن إفريقية ومدنها الكبرى العديدة لم تطالب أبدًا فى العصور الوسطى بعلاقات ثقافية مشتركة مع الغرب الإسلامى الأقصى : مراكش وأسبانيا ولما كانت هذه البلاد أقرب إلى المشرق و إلى مصر بصورة خاصة ، فإنها كانت تولى وجهها بصورة دائمة لا صوب المغرب و إنما شطر المشرق .

وكان عليهـا أن تنتظر القرن الثـانى عشر حتى يصبح تقليد أسبانيـا فى ظل الموحدين متأصلا فيها لأول مـرة على أثر ظروف سياسية جـديدة ، ثم يتعمق أولا على يد الحفصيين وأخيرًا بهجرة عـدد وافر من الموريسكيين للتوطن فيها كـان فيليب الثالث قد طـردهم عام ١٦٠٩ من شبه جزيرة أيبيريا .

وقد جاءت الظـروف الجغرافية بصورة طبيعيـة مع ذلك تساعد الحالة الـراهنة بحيث غدت الجزائر بفضل امتداد بطاحها وسلاسلها الجبلية بين تونس ومراكش مهيأة للقيام فى أغلب الأحيان بدور المنطقـة الوسيطة إذ تتلقى المؤثرات بالتنـاوب بعض صقلها من فاس أو من القيروان .

فالآثـار التى مازالت قائمـة على طرفى بلاد البربـر تكفى إذا اقتضى الأمر ذلك لكى تثبـت هذا التبـاين العميـق ذلك أن جـامع القيروان الكبير من جهـه وجـامع قرطبـة ومراكش وفاس من جهة أخرى بالنظر إلى الطريقـة التى تسمح فيها أزمنة بنائها المختلفـة بتقارب ما ، تبـوح على الرغم مما بينها من بعض أواصر القرابـة بأنها متشابهة أقل ما يمكن من التشابه .

إذ إن الجو ليس واحـدًا وكذلك البـلاد . فقد كـانت الأسر القديمـة المسلمة دائما فى أفريقية ممعنة فى شرقيتها .

ومعهما كان أصل الحضـارة التى ساعدت تلك الأسر على نهضتها فإنها كـانت تبدى على نحو ثابت قلة اكتراث مستخف بغير عدل ، لا يخلـوا من غيره أحيانا إزاء كل ما يفيد من ناحية أسبانيـا . واجتهد بنو الأغلب فى البداية فى أن يجعلوا من عـاصمتهم مقرًا للرد

على المؤسسات العباسية .

وعندما اختفوا من وجه موجة الفاطميين العارمة جدد هؤلاء الروابط الثقافية القديمة الخاصة بأفريقيا وصقلية وتوسعوا فيها . فكان هذا التقليد الذى استمر فيه ال Ziyides وعلى الأخص المعز أعظم عاهل من هذه السلالة . هو ذلك التقليد نفسه الذى نراه فى ذات الوقت ، وإنما فى كثير من التألق يتحقق فى مصر منذ بداية النصف الثانى من القرن العاشر .

أما بقية المغرب الإسلامى ـ المغرب الأوسط والمغرب الأقصى على الأخص وهو المدعو مباشرة أكثر من غيره لتلقى مؤثرات الثقافة الأسبانية ـ فإنها قد اتخذت موقفا تحت ضغط الظروف مختلفا عن موقف إفريقية . ولكنها لوحظت مع ذلك وفى بعض المناسبات عندما أصبحت السلالات البربرية من المرابطين والموحدين هى سيدة الأرض الإسلامية فى شبه الجزيرة أنها تحاول إن لم يكن إبعاد الوصاية الأسبانية عنها فعلى الأقل إضعافها إلى أدنى حد .

وفى الوقت الذى مازالت فيه ذكرى النصر فى الأركوس تبرر ، فى الغرب دفوعا عن الوطن Prodomo تتعلق بنوع من المفاخرة العربية ، فإن مطلع القرن الثالث عشر قد شهد ما يشبه تلك المحاولة تحت ستار مباراة خطابية بين اثنين متأدبين : أحدهما أفريقى والآخر من أصل قرطبى .

إن رد المناهج عن الثقافة الأندلسية التى مازلنا نحتفظ بنصه كاملا يستحق بنا الوقوف لنفحصه قبل أن ننهى هذه السلسلة من الملاحظات عن المغرب الإسلامى والحضارة الأسبانية العربية .

ذلك أنها وثيقة إذا طرحنا من صيغتها الجزء المبالغ فيه أو المغرض تبقى معتبرة فى هذا المجال لوحة من اللوحات الشاملة المعاصرة وهى أكثر مما تملك دقة وكمالا عن التهيئة الاجتماعية والفاعلية الفكرية فى أسبانيا العربية والتى توضح أيضا ، حتى فى ذلك العصر

المتأخر أن البلاد مازالت تحتفظ بكامل شعورها بصدارتها .

وذات يوم - كما يورد المقرى Makkari عن ابن سعيد Said الشهير نشبت مجادلة بين المتأدبين من حاشية أحد الأمراء الموحدين الذى كان واليا على مدينة سوتا Ceuta واقعة على مضيق جبل طارق ذلك أن عالمين : أحدهما من طنجة والآخر من سيكندا من أرباض قرطبة أخذا يتناقشان حول تفوق بلد كل منهما على الآخر .

وإزاء إصرار الطنجاوى على تأكيد أفضلية شمال أفريقية السياسية فقد انتهى السيكندى الأسبانى إلى أن يصرخ فى وجهه قائلا : « لو لم تكن الأندلس لما ذكر المغرب حتى مجرد الذكر وبقى قابعا فى الظلام ! » وحسما للمناظرة فقد أمر الحاكم الموحد الأديبين أن يضع كل منهما رسالة يثبت تفوق بلده الخاص .

ففى هذه الظروف التى هى بلا ريب صحيحة تاريخيا ألف Shakundi رسالته ولحسن الحظ احتفظ بنصها إلى أيامنا هذه .

يبدأ المؤلف الأندلسى بذكر وقائع تاريخ السلالة الأموية فى أسبانيا وأفريقية ، ويعلن بأن هذه الوقائع تؤيد بسهولة وجه الشبه بينها وبين جلائل أعمال الموحدين التى لا ينكرها مع ذلك مطلقا . فهو يعطى أمراء الولايات فى القرن الحادى عشر حقهم إذ يقول : إنهم « أنعشوا سوق العلوم وتنافسوا فى تشجيع الشعراء والكتاب » ويعطى من بينهم لملوك أشبيلية المقام الأول أولئك الملوك الذين يرى أنهم فاقوا بنى حمدان فى حلب فيما أبدوه من اهتمام بالآداب . وقد أبرز تلك الحقبة الزاهرة التى كان فيها الأمير الشاعر المعتمد مركزًا تنجذب إليه وتلتف حوله طائفة من الكتاب الرقيقين كابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار .

فأنَّى للمغرب أن يستطيع المفاخرة بفقهاء كابن حبيب وبمفكرين كابن حزم وابن رشد وابن باجة Avempace وبأطباء كابن زهر وبمؤرخين كابن حيان وبكتاب نثر فنى كمؤلف قلائد العقيان وبمؤرخى أدب كابن بسام وأخيرًا بملوك كالمعتمد بن عباد وهل أنجب المغرب من شعراء يزينون بالوشى الرقيق المواضيع التقليدية الكلاسيكية أو الإلهام

المحلى ، ويلونون فى قالب جديد الاستعارات التى تنطوى على المرأة المحبوبة وتدل عليها فى آن واحد ، ويصفون نضرة الحدائق والغياض والمياه المنسابة ، وعذوبة الأشجار وتلألؤ الأفنان ؟ وأنَّى للمغرب أخيراً القادة الذين يتتبعون بلا هوادة أثر العدو المسيحى ، فيملؤنه رعبا وينتزعون إعجابه ؟ ثم يعدد الكاتب بعد ذلك مدنا أسبانية كثيرة غدت منذ القرن الحادى عشر مراكز للثقافة بعد أن فقدت عاصمة الأمويين منزلتها كعاصمة علمية .

فهو يذكر على التوالى أشبيلية ونهرها وغابات زيتونها التى ألهمت شعراء كثيرين . وJaen وقلاعها الحصينة ، وغرناطة التى يسميها دمشق الأندلس ، ومالقة المدينة التجارية الشهيرة بمنتجات حقولها من التين والخمور « بين حلال وحرام » والمرية المرفأ الزاهر « مرقاة الغرب Echelle Du Coucl Ant » حيث كانت تزدحم المراكب التجارية قبل أن تعود محملة بالأقمشة الثمينة إلى موانئها فى بيزة وجنوة والبندقية أو الإسكندرية ، ومرسية مدينة الزهور وأخيرا فالنسية وبحيرتها التى تتلألأ عليها أشعة الشمس المنعكسة .

من هنا ندرك لهجة الزهو التى تبدو مع ذلك أقل نشازاً فى نصها العربى منها فى الترجمة ، هذه اللهجة التى تلازم من البداية حتى النهاية هذا الدفاع الطويل والذى هو فى الوقت نفسه هجوم على الخصم ، فعلينا إذًا من خلال الإسلوب الذى اعتمده الكاتب أن نرد رسالته من مقاييسها الصحيحة ، على إنه لاينبغى مطلقا أن ننكر المدى العميق للصيحة العنيفة المحقة التى قضت بوضع هذه الرسالة : « لو لم تكن الأندلس لما ذكر المغرب ! » وبقدر ما كان الناس فى ذلك العصر على يقين أيضا من أن أحد هذين البلدين القريبين جد القرب وأحدهما من الآخر وأنهما على صلات ضرورية ودائمة ، قد أصبح بلا ريب من جراء ضعف مقامه السياسى المتزايد تابعا للآخر على نحو ما ، إلا أنه بالمقابل حافظ على تقليده التمدينى سليما ، فقدر ما كان صحيحا أن أسبانيا الإسلامية التى تحولت إلى دور التابع السياسى لمراكش قد استمرت مع ذلك بأنفة السيد الروحى على أن تطبعها بطابع ثقافتها وبعبقريتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم .

[هذا كتاب][1] أخبار مجموعة فى افتتاح الأندلس وذكر من وليها من الأمراء إلى دخول عبد الرحمن بن معاوية وتغلبه عليها وملكه فيها هو وولده والحروب الكائنة فى ذلك بينهم .

روى أنه لما اشتغل الناس بالفتن واشتغل عبد الملك بن مروان[2] بعبد الله بن الزبير[3] وبالأزارقة[4] وابن الأشعث[5] وغيرهم اشتد أمر الروم والأكراد وبقايا فارس فارتجعوا بلدانًا كثيرة نفوا أهل الشأم عنها فجاهد عبد الملك لما خلا ذرعه فأخرجهم عن بعضها وبقى الأكثر ، فبعث الوليد رحمه الله البعوث فارتجع مدائن الروم واقحم عليهم فى غيرها ، ثم ارتجع مدائن خراسان وأقحم عليهم حتى استقصى البلاد ولم يبق من سلطان الفرس إلا الأكراد لامتناع حالهم ، وكان أهم ثغوره إليه ثغر إفريقية ، وقد كان عقبة بن

---

(١) إضافة من عندنا للسياق مع المعنى .

(٢) يطلق عليه أبو الخلفاء لأن أولاده الخمسة تقلدوا منصب الخلافة الأموية .

(٣) وهو أبو بكر وأبو خبيب عبد الله بن الزبير غزا إفريقية مع ابن أبى سرح فى خلافة عثمان ، وهو الذى ولى قتل جرجير ملكها واحتز رأسه وجعله فى رمحه .

ولى ابن الزبير الخلافة بالحجاز والعراق وأكثر الشام بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان .

وكان قد خرج من المدينة مع الحسين بن على ـ إثر موت معاوية بن أبى سفيان ، ممتنعا من بيعة ابنه يزيد ـ وأقام يسلم عليه بالخلافة تسع سنين ، ثم قتله عبد الملك بن مروان على يد الحجاج سنة ثلاث وسبعين من الهجرة .

(٤) هم أتباع نافع بن الأزرق الحنفى المكنى بأبى راشد .

انظر : الفرق بين الفِرَق للبغدادى ٦٢ ـ ٦٤ .

(٥) المقصود به عبد الرحمن بن الأشعث .

نافع الحارثى[1] حارث فهر اختط قيروان[2] أفريقية وبنى حصنها وهو عامل لعبد الله بن سعد بن أبى سرح[3] العامرى عامر لؤى فى زمان عثمان رحمه الله ، ثم مضى فافتتح ماخلفها حتى بلغ تونس وبلغ سبرة[4] ، ثم هاجت فتنة عثمان رحمه الله فانقطعت الصوائف عن إفريقية واشتد أمر البربر ، ثم انقطعت الفتنة فرجعت الصوائف على يد معاوية رحمه الله فاستقامت إفريقية حتى غزا عقبة بن نافع ثلاث وستين وهو عامل الجزيرة فى زمان يزيد بن معاوية رحمه الله طنجة[5] فلقيته قبيلة للبربر يقال لها أوربة فهزموا أصحابه واستشهد رحمه الله ، ثم هاجت فتنة ابن الزبير وغيرها إلى أن تفرغ عبد الملك وولى الوليد وثغر إفريقية أهم الثغور إليها فدعى موسى بن نصير[6] مولى بنى أمية وأصله من علوج أصابهم خالد بن الوليد رحمه الله فى عين التمر[7] فادعوا أنهم رهن وأنهم من

---

(1) وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، ولد فى أوائل الهجرة النبوية فاعتبر لذلك صحابى المولد ، وتولى إمارة جيش إفريقية مرتين : المرة الأولى من سنة ٥٠ هـ إلى ٥٥ هـ / ٦٧٠ م - ٦٧٤ م ، والمرة الثانية من ٦٠ هـ إلى ٦٤ هـ / ٦٨٠ م - ٦٨٤ م وذلك فى عهد معاوية بن أبى سفيان وولده يزيد .

(2) له ترجمة وافية فى معجم البلدان لياقوت الحموى .

(3) وهو صاحب معركة ذات الصوارى ومن أقرباء عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(4) بفتح أوله وسكون ثانية بلفظ المرة الواحدة من سبرت الجرح إذا قسته لتعرف غوره وهو اسم مدينة بإفريقية فتحها عمرو بن العاص بعد طرابلس فى سنة ٢٣ هـ .
انظر : معجم البلدان ٣ / ١٨٤ .

(5) بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر قال ابن حوقل : طنجة مدينة أزلية آثارها ظاهرة بناؤها بالحجارة قائمة على البحر والمدينة العامرة الآن ميل من البحر وليس لها سور وهى على ظهر الجبل ، وماؤها فى قناة يجرى إليها من موضع لا يعرفون منبعه على الحقيقة وهى خصبة ، وبين طنجة وسبتة مسيرة يوم واحد ، وقيل إن عمل طنجة مسيرة شهر فى مثله وهى آخر حدود إفريقية .
انظر : معجم البلدان ٤ / ٤٣ .

(6) موسى بن نصير القائد التابعى المعروف عبد الرحمن موسى بن نصير اللخمى ولد سنة ١٩ هـ وتوفى سنة ٩٨ هـ ، وكان أبوه نصير من كبار حرس معاوية بن أبى سفيان ، تولى موسى حكم المغرب مكان حسان بن النعمان سنة ٨٦ هـ .

(7) بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثا ، منها يجلب القسب والتمر إلى سائر البلاد ، وهو بها كثير جدًا وهى على طرف البرية وهى قديمة افتتحها المسلمون فى أيام أبى بكر على يد خالد بن الوليد فى سنة ١٢ هـ وكان فتحها عنوة فسبى نساءها وقتل رجالها .
انظر : معجم البلدان ٤ / ١٧٦ - ١٧٧ .

بكر بن وائل فصار نصير[1] وصـــيفا لعبد العزيز بن مروان[2] فأعتقه وبعثه وعقد له فى سنة ثمان وسبعين على إفريقية وما خلفها ، وأخرجه إلى ذلك الوجه فى نفر قليل مطوعين لم يخرج له جند من الشأم ، واكتفى لـه بجنود مصر وإفريقيـة وبمن تطوع فسـار حتى ورد مصر فأخرج معه من جنـدها بعثًا ثم سار حتى أتى إفريقية ، وأخـرج معه من أهلها أهل القوة والجلد وعلى مقـدمته طارق بن زياد فلم يزل يقاتل البربـر ويفتتح مدائنهم وبلدانهم حتى بلغ طنجة وهى قصبة بلاد البربر وأم قـراهم فافتتحها ، ولم تكن افتتحت قبل ويقال إنها افتتحت ثم ارتجعت فـالله أعلم ، فأسلم أهلهـا واختطها قيروانًـا للمسلمين وأوطنها إياهم وكتب بذلك إلى الوليد سنة تسع وثمانين ثم سـار موسى يريد مدائن على شط البحر فيها عمال صاحب الأنـدلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها وكـان رأس تلك المدائن مدينة يقال لها سبتة[3] ، وكان عليها وعلى مـا حولها من المدائن علج[4] يسمى يليان[5] فقاتله موسى بن نصير فالفى عنده عدّةً وقوّةً ونجدةً ليست تشبه ماقبلها فلم يطقهم فرجع عنهم

---

(١) وهو ولد موسى صاحب الفتوحات الأندلسية المشهورة .

(٢) الذى كان يتقلد ولاية مصر من قبيل أخيه عبد الملك بن مروان .

(٣) بلفظ الفعلة الواحدة من الأسباب وهى بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر ، وهى على بـر البربر تقـابل جزيـرة الأندلس على طرف الـزقاق الـذى هو أقـرب ما بين البر والجزيرة وهى مدينة حصينة تشبه المهدية التى بإفريقية على ما قيل لأنها ضاربة فى البحر .
انظر : معجم البلدان ٣ / ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٤) له قصة انظر : فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس .

(٥) يتحفظ ابن الحكم فى تجديد علاقة يليـان بلذريق فيقول إنه « كان يؤدى الطـاعة إلى لذريق صاحب الأندلس » ولا يقول شيئا عن أصله أو جنسه .
وكذلك الأخبار المجمـوعة تكتفى من صفته علج وأنه كان يحكم « مـدائن على شط البحر فيها عمال الأندلس قد غلبوا عليهـا وعلى ما حولها ، وكان رأس تلك المدينة مدينة يقـال لها سبتة ، وكان عليها وعلى من حولها من المدائن علج يسمى يليان » ، ممـا يفهم منه أن يليان كان عـاملاً من عمال لذريق ويصفه ابن خلدون بأنه رومى ، ويذهب ابن عذارى إلى أنه قوطى .
ويلقبه ابن الأثير بالبطريق أى أنه يقرر أنه كان روميًا .
انظر : ابن عذارى البيان ١ / ٢١١ ، العبر ٤ / ١٨٥ ، الكـامل فى التاريخ ٤ / ٨٩ ، فتوح مصر وأخبارها ١ / ١٠٤ .

إلى طنجة ، وجعل يجتث ماحولها بالمغاورة فلم يطقهم ، وكانت المراكب تختلف إليهم من الأندلس بالمعاش والإمداد ومع ذلك كانوا يحبون بلادهم ويذبون عن حريمهم ذبًّا شديداً حتى هلك ملك الأندلس غيطشة وترك أولادًا لم ترضهم أهلها منهم ششبرت[1] وآبه فاضطرب حبل الأندلس فتراضوا على علج يقال له رذريق شجاع هجوم ليس من بيت الملك ، إلا أنه من قوّادهم وفرسانهم فولوه أمرهم ، وكان جميع ملوك الأندلس يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى بلاط ملكهم بطليطلة[2] وهى يومئذ قصبة الأندلس ودار ملكها يكونون فى خدمة ملكها لا يخدمه غيرهم يتأدبون بذلك حتى إذا بلغوا أُنكح بعضَهم من بعض وتولى تجهيزهم ، فلما ولى رذريق أعجبته ابنة يليان فوثب عليها فكُتب إلى أبيها أن الملك وقع بها فأحفظ العلج ذلك ، وقال : ودين المسيح لأزيلن ملكه ولأحفرن تحت قدميه فبعث إلى موسى بالطاعة وأقبل به فأدخله المدائن بعد أن اعتقد لنفسه ولأصحابه عهدًا رضيه واطمأن إليه ، ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها وذلك فى عقب سنة تسعين فكتب موسى إلى الوليد بتلك الفتوح وبما دعاه إليه يليان فكتب إليه أن خضها بالسرايا حتى تختبر ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال ، فكتب إليه أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر فكتب إليه وإن كان فاختبره بالسرايا فبعث رجلاً من مواليه يقال له طريف ويكنى بأبى زرعة فى أربعمائة ، ومعهم مائة فرس فسار فى أربعة مراكب حتى نزل بمراكبه جزيرةً يقال لها جزيرة الأندلس التى هى معبر مراكبهم ، ودار صناعتهم يقال لها جزيرة طريف سميت به لنزوله فيها ، فأقام حتى تتام إليه أصحابه ، ثم نهض حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبيا لم ير موسى مثله ولا أصحابه ومالاً جسيما ورجع سالما وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين فلما رأى ذلك تسرعوا إلى

---

(١) انظر : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى .

(٢) مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادى الحجارة من أعمال الأندلس وهى غربى ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم وهى على شاطىء نهر تاجة وعليه القنطرة .

الدخـول فدعى موسى مولى لـه كان على مقدمـاته يقال له طـارق بن زياد[1] وكان فارسا همدانيـا ويقال إنـه ليس بمولاه وإنـه من موالى صـدف فبعثه فى سبعـة آلاف من المسلمين جلهم البربر والموالى ليس فيهم عـرب إلا قليل فدخل فى تلك الأربع السفن لاصنـاعة لهم غيرها وذلك فى سنـة اثنتين وتسعين ، فاختلفت السفن بالـرجال والخيْل وضمهم إلى جبل على على شط البحر منيع فنزله والمراكب تختلف حتى تـوافى جميع أصحابه ، وكان الملك لما بلغته غارة طريف[2] أعظم ذلك وكان غـائبا قد غزا بنبلـونة فأقبل منها وقـد دخل طارق فجمع له جمعاً يقـال إنه مائة ألف أو شبه ذلك فلما بلغ إلى طـارق كتب إلى موسى يستمده ويخبره أن قد فتـح الله الجزيرة ، واستـولى عليها وعلى البحيرة ، وإنـه قد زحف إليـه ملك الأندلس بما لا طـاقة له به وكان مـوسى مذ وجه طارق أخـذ فى عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة فحمل إليها خمسة آلاف فتوافى المسلمـون بالأندلس عند طارق اثنى عشر ألفـا وقـد أصابـوا سبيـا كثيراً ورفيعـاً ، ومعهم يليـان فى جماعة من أهل البلـد يـدلهم على العـورات ويتجسس لهم الأخبار فأقبل إليهم رذريق ومعـه خيار أعـاجم الأندلس وأبنـاء ملوكها فلما بلغتهم عدة المسلمين وبصائرهم تـلاقوا بينهم ، فقال بعضهم لبعض هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننـا وليس من أهله ، وإنما كان من سفالنا وهـؤلاء قوم لا حاجة لهم بإئطان بلدنا إنما يـريدون أن يملوا أيديهم ثم يخرجوا عنا فانهزم بنـا بابن الخبيثة إذا لقينا القـوم فأجمعوا لـذلك ، وكان رذريق قـد ولى ششبرت ميمنته وآبـة ميسرته وهما ابنـا الملك

---

(١) يسميـه ابن خلدون طـارق بن زيـاد الليثى ، وتذهب بعض المراجع إلى أن طـارقـا ربما كان فـارسى الأصل اعتمادًا على ما يقولـه الرازى فدعا موسى مـولى له كان على مقدمتـه يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فـارسيا همذانيا ، وقيل إنه ليس بمولى موسى ، وإنما هـو رجل من صدف وقيل مولى لهم ، وقد كان عقبة بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكار شديدًا ، وقيل إنه بربرى من نفزة .

(٢) تذهب بعض المراجع إلى أن طريفا كان من أهل اليمن ، وتختلف بعد ذلك ، فيزعم بعضها أنه كان من النخع ، ويذهب البعض الآخـر إلى أنه معافر ولم نعـد نسمع عن طريف هذا بعد هـذه السرية الموفقـة التى قـام بها مستطلعًـا أحـوال الأندلـس للمسلمين ، ولكنه يظهـر مـرة أخـرى على مسرح الحوادث فى المغرب ، ويلعب دوراً خطيرًا فى الثـورة التى قام بها ميسرة البربرى البراغـوطى فى المغرب الأقصى والتى كانت أول حركة قام بها المغرب على المسلمين ، ويقول ابن عذارى إنه بربرى .

غيطشة الذى كان ملكـا قبله ، وهما رأس من أدار عليه الانهزام فأقبل فى جيش جحفل[١] نحو المائة الألف ، وذلك أن الأنـدلس قد كانت جـاعت سنة ثمان وثمانين فدارت جـوعا سنة ثمان وسنة تسع وسنة تسعين ووبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر ، ثم كانت سنة إحدى وتسعين وهى بالأندلس سنة طريف سنة خلفٍ فالتقى رذريق وطارق وهو بالجزيرة بموضع يقـال له البحيرة فاقتتلوا قتـالاً شديداً فـانهزمت الميمنة والميسرة وانهزم بهم شسبرت وآبـة ابنـا غيطشة ، ثم قـابل القلب شيـا من قتـال ثم انهزم رذريق وأذرع المسلمـون فيهم بالقتل وغـاب رذريق فلم يدر أين وقع إلا أن المسلمـون وجدوا فـرسه الأبيض وكـان عليه سرج لـه من الذهب مكلل بـالياقـوت والزبـرجد ووجـدوا حلة من ذهب مكللـة بالـدر والياقوت قد ساخ الفرس فى الطين وفى السـواخ وقع فيه وغرق العلج فلما أخرج رجله ثبت الخُضّ فى الطين والله أعلـم ما كان مـن أمره لم يسمع لـه خبر ولا وجد حيا ولا ميتـا ، ثم مضى طـارق إلى مضيق الجزيرة ثم إلى مـدينة استجـة[٢] فلقيـه أهلهـا ومعهم من فل من العسكر الأعْظم فقاتلوه قتالا شديدا حتى كثر القتل والجراح فى المسلمين ، ثم إن الله أنزل عليهم نصره وهزم المشركين فلم يلقـوا حربًا مثلهـا فورد طـارق عينا من مدينـة أستجة على نهرها على أربعة أميال فسميت العين عين طارق وقذف الله الرعب فى قلوب العلوج لما رأوه أقحم فى البلـد ، وكانـوا يظنون أنـه يفعل فعل طريف فهـربوا إلى طليطلـة وغلقوا مـدائن الأندلس ، وأقبل يليان إلى طارق فقال له : قد فرغت بالأندلس وهؤلاء أدلاء من أَصحابى فَرِّق معهم جيـوشك وخذ أنت إلى طليطلة ففرَّق جيـوشه من أستجة فبعث مغيثـا الرومى مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة وكانت من أعظم مدائنـــهم وهى اليوم قصبة الأندلس [وقيروانها] ، موضع ملكهـا فى سبعمائة فارس لم يبعث معه رجـلا واحداً ولم يكن بقى من

---

(١) بمعنى كبير العدد والعدة .

(٢) بالكسر ثم السكون وكسر التاء فوقها نقطتان وجيم وهاء اسم لكورة بالأندلس متصلة بأعمال رية بين القبلـة والمغرب من قـرطبة وهى كـورة قديمـة واسعة الـرساتيق والأراضى على نهر سنبحل وهـو نهر غرناطة ، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة .

المسلمين راجل إلا ركب وبعث جيشا إلى مدينة رية ، وبعث إلى غرناطة[1] مدينة ألبيرة وسار هو فى عظم الناس يريد طليطلة وسار مغيث حتى أتى قرطبة فكمن بقرية شقندة فى غايضة أرز كانت بين قرية شقندة وقرية طرسيل ، وبعث من معه من أدلائه فاقتصوا له راعى غنم فأوردوه عليه وهو فى الغايضة يغنمه فسأله عن قرطبة فقال له : رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة وأبقوا فيها ملكا فى أربعة مائة من حماتهم مع ضعفاء أهلها ثم سأله عن حصانة سورها فأخبره أنه حصين ، إلا أن فيه ثغرة فوق باب السور وهو باب القنطرة ووصف لهم الثغر فلما أجنَّهم الليل أقبل مغيث ومما هيأ الله له الفتح أرسل السماء برذاذً مختلط بقطقط فأقبل على نهر قرطبة ليلاً ، وقد أغفل حرس السور الحراسة خيفًا من البرد والمطر فإنما تسمع صياحًا ضعيفةً متفاوتةً فدخل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور إلا قدر ثلاثين ذراعا أو أقل فراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقا فرجعوا إلى الراعى فأقبلوا به فدلهم على الثغرة وإذا هى ثغرة ليست مستأصلة وفى أسفلها شجرة تين فراموا التعلق بها فتعذر ذلك حتى صعد رجل من المسلمين فى أعلاها ثم نزع مغيث عمامته فناوله طرفا ثم ارتقى الناس حتى كثروا على السور ، وركب مغيث حتى وقف بباب الصورة من خارج وأمر أصحابه الذين دخلوا المدينة بالهجوم على أحراس باب الصورة وهو باب القنطرة ، والقنطرة يومئذ قد تهدمت ، ولم تكن بقرطبة قنطرة فهجم المسلمون على حراس باب الصورة وكان يقال له إذ ذاك باب الجزيرة فقتلوا فيهم وهزموهم وكسروا الأقفال فدخل مغيث بجماعة من معه من أصحابه وعيونه وأدلائه فصمد إلى البلاط فلما بلغ الملك دخولهم خرج فى جملة أصحابه وهم أربعمائة أو خمسمائة ومن خرج معه من باب المدينة

(=) انظر : معجم البلدان ١ / ١٧٤ .

(١) بفتح أوله وسكون الثانية ثم نون وبعد الألف طاء مهملة ومعناها رمانة بلسان عجم الأندلس ، وهى أقدم مدن كورة ألبيرة من أعمال الأندلس ، وأعظمها وأحسنها وأحصنها ، يشقها النهر المعروف بنهر قلزم فى القديم .

الغربى يقال له باب أشبيلية[1] فتحصن بكنيسة فى غربى المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة وهى شنت أجلح فدخلها ودخل مغيث بلاط قرطبة فاختطه ثم خرج يومًا آخر فحاصر العولج بالكنيسة وكتب إلى طارق بالفتوح ومضى الجيش الذى توجه إلى رية ففتحها ونجا علوجها إلى جبال ممتنعة .

ومضى ليلحق بالجيش المتوجه إلى ألبيرة فحصروا مدينتها فافتتحت فألفوا بها يومئذ يهودًا وكانوا إذا ألفوا اليهود ببلدة ضموهم إلى مدينة البلد وتركوا معهم من المسلمين طائفة ومضى عظم الناس ففعلوا ذلك بغرناطة مدينة ألبيرة ولم يفعلوا ذلك بمالقة[2] مدينة رية لأنهم لم يجدوا بها يهودًا ولا عمارة وإنما كانوا لاذوا بها وقت حاجتهم ثم مضى إلى تدمير وإنما سميت تدمير باسم صاحبها وإنما كان يقال لها أوريولة[3] فلقيهم صاحبها فى جيش جحفل فقاتلهم قتالاً ضعيفًا ثم انهزم فى فحص لا يستر شيئا فوضع المسلمون فيهم السلاح حتى أفنوهم ولجأ من بقى إلى المدينة أوريولة وليست فيهم بقية ولا عندهم مدفع ، وكان تدمير صاحبهم مجربا شديد العقل فلما رأى أن لا بقية فى أصحابه أمر النساء فنشرن شعورهن وأعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة وأوقف معهن بقية من بقى من الرجال فى وجه الجيش حتى عقد على نفسه ثم هبط كهيئة الرسول فاستأمن فأمن فلم يزل يراوض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده فصارت تدمير صلحا كلها ليس منها عنوة قليل ولا كثير وعاملهم على ترك أمواله فى يديه ، فلما فرغ أبرز

---

(١) بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة ، مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس أعظم منها تسمى حمص أيضا ، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره ، وبها كان عباد ولمقامهم بها خربت قرطبة وعملها متصل بعمل لبلة وهى غربى قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا .
انظر : معجم البلدان ١ / ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٢) بفتح اللام والقاف كلمة عجمية مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رية سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية .
قال الحميدى : هى على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاف ، والقولان متقاربان .

(٣) بالضم ثم السكون وكسر الراء وباء مضمومة ولام وهاء ، مدينة قديمة من أعمال الأندلس من ناحية تدمير بساتينها متصلة ببساتين مرسية .

لهم اسمه وأدخلهم المدينـة فلم يروا فيها أحـدًا عنده مـدفع فندم المسلمون ومضـوا على ما أعطـوه وكتبوا بـالفتوح إلى طـارق وأقام بتـدمير مع أهلها رجـال ومضى عظيم الجيش إلى طليطلة إلى طـارق ، وأقام مغيث محاصراً للعلوج فى كنيسـة قرطبـة ثلاثة أشهـر حتى طال عليهم الحصار فبينا هم صبيحة يوم إذ أتى مغيث فقيل له خرج العلج هاربًا وحده منسلا يريـد جبل قرطبـة ليلحق بأصحابـه بطليطلة ، وترك أصحـابه فى الكنيسـة فأتبعه مغيث وحده ليس معه أحـد فلما أبصره هاربًا تحته فـرس أصفر يريد قـرية قطلبيرة فالتفت العلج فلما أبصر مغيثا قـد حرك فرسه عليـه دهش فخرج عن طريقـه فأتى خندقا فـوثب الفرس واندقت رقبتـه وأقبل مغيث والعلج جالـس على ترسه مستأسراً فأسره مغيـث ولم يؤسر من ملـوك الأندلس غيره منهم من اعتقـد على نفسـه أمانـاً ومنهم من هرب إلى جليقيـة[١] ، ورجع مغيث إلى بقية العلوج فاستنزلهم أسراً فضرب أعناقهم فسميت تلك الكنيسة كنيسة الأسرى وحبس ذلك العلج ليقــدم بـه إلى أمير المؤمنين وجمع يهود قـرطبــة فضمهم إليهـا واختط قصبتها لنفسه والمدينـة لأصحابه ، وسار طـارق حتى بلغ طليطلة وخلى بها رجالاً من أصحابـه فسلك إلى وادى الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعـه من فج يسمى فج طارق وبلغ مـدينة خلف الجبل تسمى مـدينة المائدة وإنما سميت مـدينة المائدة لأنـه وجد فيهـا مائدة سليمان بن داود عليـه السلام من زبـرجد خضراء منهـا حافـاتها وأرجلها ولها ثلثمائة رِجل وخمس وسبعين رِجلاً ثم مضى إلى مدينة أمـانة فأصاب بها حليا مالاً ولم[٢] . . . ، ثم رجع إلى طليطلة فى سنة ثلاث وتسعين .

---

(١) بكسرتين واللام مشددة ويـاء ساكنة وقاف مكسورة ويـاء مشددة وهاء ، ناحية قـرب ساحل البحر المحيط من نـاحية شمالى الأنـدلس فى أقصاه من جهـة الغـرب ، وصل إليه مـوسى بن نصير لما فتح الأندلس ، وهى بلد لا يطيب سكانها لغير أهلها .

وقال ابن مـاكولا : الجليقى نسبة إلى بلدة من بـلاد الروم المتاخمة لأندلس ، ويقــال لها جليقية منها عبد الرحمن بن مروان الجليقى من الخارجين بالأندلس فى أيام بنى أمية ، وقد صنف فى أخباره تاريخ

(٢) بيضاء فى الأصل .

ثم دخل موسى بن نصير فى رمضان سنة ثلاث وتسعين فى جماعة من الناس يقال معه ثمانية عشر ألفًا وقد بلغه ما صنع طارق فحسده فلما نزل الجزيرة قيل له أسلك طريقه قال : ما كنت لأسلك طريقه قال له العلوج الأدلاء : نحن ندلك على الطريق هى أشرف من طريقه ومدائن هى أعظم خطباً من مدائنه ، لم تفتح بعد يفتحها الله عليك إن شاء الله فامتلأ بذلك سروراً فكان فعل طارق قد غمه فساروا به إلى مدينة شذونة[1] فافتتحها عنوة ألقوا بأيديهم إليه ثم سار إلى مدينة قَرْمُوْنِية[2] فقدم إليها العلوج الذين معه وهى مدينة ليس بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن ترجا بقتال أو حصار وقد قيل له حين حين دُعِىَ إليه ليست تؤخذ إلا باللطف فقدم إليه علوجا ممن قد أمنه واستأمن إليه مثل يليان ولعلهم أصحاب يليان فأتوهم على حال الأفلال معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم فلما دخلوها بعث إليهم الخيْل ليلاً ، وفتحوا لهم باب قرطبة فوثبوا على أحرسه ودخل المسلمون قرمونية ، ومضى موسى إلى أشبيلية وهى أعظم مدائن الأندلس شأنًا وخطبًا وأعجبها بنيانًا وآثارًا وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس فلما غلبت القوطيون حولوّا السلطان إلى طليطلة وبقى شرف الرمانيين وفقههم ودينهم ورياستهم فى دنياهم بأشبيلية فأتاها موسى بن نصير حتى حصرها أشهرًا ثم إن الله فتحها وهرب العلوج إلى مدينة باجة فضم موسى يهودها ومضى إلى مدينة ماردة[3] كانت أيضا دار

---

(١) بفتح أوله وبعد الواو الساكنة نون ، مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحى موزور من أعمال الأندلس .
قال أبو سعد : بالفتح ثم السكون وفتح الواو والنون ، وهى من أعمال أشبيلية .

(٢) بالفتح ثم السكون وضم الميم وسكون الواو ونون مكسورة وياء خفيفة وهاء ، كورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال أشبيلية غربى قرطبة وشرقى إشبيلية .
انظر : معجم البلدان ٤ / ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

(٣) هو تأنيث الذى قبله كورة واسعة من نواحى الأندلس متصلة بحوز فريش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة إحدى القواعد التى تخيرتها الملوك للسكنى من القياصرةوالروم . وهى مدينة رائعة كثيرة الزحام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب وبينها وبين قرطبة أيام ولها حصون وقرى .

بعض ملوك الأندلس ذات أثـار وقنطرة وقصور وكنائس تفوق الوصف فحصرهـا وقد كان أهلها خرجوا إليـه وزحمهم دفعة فقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثـر قتالاً شديدًا فلما رأى خروجهم إليه أبصر فيهـا حفرًا كانت مقاطع للصخر فأكمن فيها الـرجال والخيل ليلاً فلما أصبح زحف إليهم فخرجـوا إليه كهيئة خـروجهم بالأمس ، فركبهم المسلمـون وخرج عليهم الكمين وقُتِلوا قتـلاً ذريعًا ، ونجا من نجـا منهم إلى المدينة وهى مدينـة حصينة لها سور لم يبن الناس مثله فثبت عليهم يقاتلهم أشهـرًا حتى عمل دبابة فدب المسلمون تحتها إلى برج من أبراجها فنقبوا صخره فلما نزعوا صخره أفضوا فى داخله إلى الصماء التى يقال لها اللاشَّة ماشَّـه بلسان أهل الأندلس ، فثبت عنها معاولهم وفؤوسهـم فبيناهم يضربون فيها إذا استفـاق عليهم العلوج فـاستشهـد المسلمون تحت الـدبـابـة فسمى بذلك البرج بـرج الشهداء إلى اليوم .

وما أقل من يعرف هذا وكان فتحه لها فى رمضان سنةأربع وتسعين يوم الفطر فلما كان من أمر الشهـداء ما كان قـال العلوج : قد كسرنـاه فإن كان يـومًا جيبًا إلى الصلح فـاليوم فاطلبوه إليه فخرجوا إليه فألفـوه أبيض اللحية فراوضوه على شىء لم يوافقه ، ثم رجعوا فلما كان قبل العيد بيوم خرجوا إليه ليراوضوه فإذا هـو قد شبب لحيته بالحناء فألفوه أحمر اللحية فعجبوا وقال قائلهم : أظنه يأكل ولد آدم أو ما هذا الذى رأيناه بالأمس ثم خرجوا إليه يوم الفطر فإذا اللحية سوداء فرجعوا إلى أهل مدينتهم فقالوا ياحمقاء إنما تقاتلون أنبياء يتخلقون كيف شاءوا يتشببـون قد صـار ملكهم حدثـاً بعد أن كـان شيخًا اذهبـوا فاعطـوه ما سأل فصـالحوه على أن جميع أمـوال القتلى يــوم الكمين وأمـوال الهاربين إلى جليقيـة للمسلمين وأموال الكنائس وحليها له ، ثم فتحوا لـه المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين ثم أن عجم أهل أشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها لبلة[1] ومدينة يقال لها باجة[2] فقتلـوا من بها من المسلمين قُتل فيها ثمانـون رجـلاً فقدم فلّهم على مـوسى بن

---

(١) بفتح أوله ثم السكـون ولام أخرى ، قصبة كورة بـالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل أكشـونية وهى شرق من أكشونية وغرب من قرطبة وبينها وبين قرطبة على طريق أشبيلية اثنان وأربعون ميلا .

(٢) انظر : معجم البلدان ١ / ٣١٥-٣١٦ .

نصير بماردة فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيـز على جيش إلى أشبيلية فافتتحها ورجع ثم مضى موسى من ماردة عقب شوال يريد طليطلة وبلغ طـارقًا إقباله فخرج معظمًا له متلقيًا فلقيه بكورة طلبيرة[1] بموضع يقال له باند فلما رآه نـزل إليه فوضع موسى السوط على رأسه ووبنه فيما كـان من خلاف رأيـه ، ثم سار بـه إلى مدينـة طليطلة ثم قـال له : أحضرنى بما أصبت وبالمائدة فأتـاه بها وقد اقتلع رِجلاً كســـــرها من أرجلها فقال له أين هـذه الرِّجل فقال : إننى لا علـم لى كذلك أصبتها فأمـر بالـرِّجل فعُمل لها من ذهب وعمل لها سفط من خوص فأدخلها فيه ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومدائنها .

ثم جـاء رسول الخليفـة الوليـد سنة خمس وتسعين فأخـذ بعنان مـوسى فأخرجـه من الأندلس وطارق معه ، مغيث وخلَّف ابنه عبد العـزيز على الأندلس استخلفه على مدائنها وبلـدانها وأسكنه أشبيليـة وهى مـدينة على نهر عظيـم لا يخاض فأراد أن تكون فيـه سفن المسلمين وتكـون باب الأنـدلس فأقام عبـد العزيـز وخرج أبـوه ومعه طـارق ومغيث ومع مغيث العلج ملك قرطبـة الذى أصـاب بها ، وكان مغيث يدل بمكـان ولائه من الخلافة فبعث إليه موسى هـات العلج فقال : والله لا تأخذه وأنا أقدم بـه على الخليفة فهجم عليه فنزعـه منه فقيل لـه إن سرت به حيًّـا قال مغيث : أنـا أصبته ولكن أضرب عنقـه ففعل ثم مضى حتى قدم على سليمان وقد مات الوليد ثم أن ابنه عبد العزيز تزوج امراة لرذريق يقال لها أم عاصم[2] فهمَّ بها فقالت له إن الملوك إذا لم يتتـوجوا فلا ملك لهم فهل لك أن أعمل لك مما بقى عنـدى من الجوهر والذهب تاجـاً فقال : لها ليس هذا فى ديننا فقـالت له من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليـه فى خلوتك فلم تزل به حتى فعل فبينما هو يـومًا جالس معهـا والتاج عليـه إذ دخلت امرأة كـان قد تـزوجهـا زياد بن النـابغة التميمى من بنـات ملـوكهم فـرأته والتـاج على رأسـه فقالت لـزيـاد ألا أعمل لك تـاجًا فقـال ليس فى ديننـا

---

(١) بفتح أوله وثانيه وكسر البـاء الموحدة ثم ياء مثناه من تحت ساكنة وراء مهملة ، مـدينة بالأندلس من أعمال طليطلة كبيرة قديمة البناء على نهر تاجة بضم الجيم .

(٢) وردت التفاصيل فى كتاب فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس .

استحلال لباسه فقالت فودين المسيح إنه لعلى إمامكم فأعلم بذلك زياد بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع[1] ثم تحدثا بـه حتى علمه خيار الجنـد فلم تكن له همة إلا كشف ذلك حتى رآه عياناً ورآه أهله صدقاً فقـالوا تنصَّر ثم هجموا عليه فقتلوه فى عقب سنة ثمان وتسعين والخليفة بعد سليمان بن عبد الملك وقد افتتح فى ولايته مدائن كثيرة ثم اجتمع أهل الأندلس بعد أن أقاموا سنين لا يجمعهم والٍ على ابن حبيب اللخمى ، وكان رجلاً صالحًا يؤمهم لصلاتهم فلما أطـال بهم المقام بلا والٍ ولوه أمرهـم وحولـوا السلطان إلى قرطبة فى أول سنة تسع وتسعين .

وكان مقتل عبد العـزيز بن موسى[2] فى عقب ثمان وتسعين فنـزل أيـوب بن حبيب البـلاط بقرطبـة الذى كـان مغيث اختطه لنفسـه ، وذلك أن موسى بن نصير حين أقفلـه رسول الـوليد أقبل على طريق طـارق ليختبر الأندلس فأقبل إلى قرطبـة فقال لمغيث[3] إن

---

(١) وعبد الرحمن بن حَبيب كـان ابن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، أى أنه حفيـد الفاتح العربى الكبير وكان قد نشأ فى إفريقية وتزعم طائفة عربها ، أى الذين استقروا فيها واتخذوها لهم وطناً أو ولدوا فيها وأصبحوا يعدون أنفسهم عربا إفريقيين ، وهم يقاتلون البلديين فى الأندلس .
وكان أولئك العـرب الأفريقيـون لا يستريحون إلى العرب الجدد المقبلين من المشرق ، ويناوئون الولاة الذين أقامهم بنى أمية ثم بنو العباس ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق فى الولاية والحكم .

وقد تزعم هذه الطـائفة أول الأمر حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافـع ، وتصدى لمقاومة ولاة بنى أمية ، وظهر أمره بصورة خاصة عندما ولى هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض القشيرى فى رمضان ١٢٣ هـ وأقبل معـه ابن أخيه بلج بن بشر ، وكـان شابـا عنيفا شديـد الغرور ، أثـار غضب عرب إفريقيـة فأجتمعوا حـول حبيب بن أبى عبيدة ، وكان هـذا الخلاف من أكبر أسباب هـزيمة جيش كلثوم بن عياض فى موقعة سبو ، أواخر سنة ١٢٣ هـ ، وقد قتل فيها عياض وحبيب بن أبى عبيدة ونجـا بلج بن بشر منهزمـا إلى سبتة ثم إلى الأنـدلس ، ونجـا كذلك عبـد الرحمن بن حبيب وفـر إلى القيروان ، ثم عبر إلى الأندلس ليحرض عبد الملك بن قطن الفهرى قبله على بلج وأصحابه .
انظر : ابن عذارى ١ / ٧٠ .

(٢) انظر : الحلة السيراء ٢ / ٣٣٤ .

(٣) هو مغيث الرومى فاتح قرطبة ، قـال المقرى : ليس برومى على الحقيقة وتصحيح نسبه أنه مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلـة بن الأيهم الغسانى ، سبي من الـروم بالمشرق وهـــو صغير ، فأدبه عبد الملك بن مـروان مع ولده الوليـد ، وأنجب فى الولادة وصـار منه « بنو مغيث » الـذين نجبوا فى قرطبة وسادوا وعظم بيتهم وتفرعت دوحتهم ونشأ مغيث بـدمشق فأفصح بالعربية ، وقال الشعر =

هذا البـلاط ليس يصلح لك إنما يصلح لوالى قرطبة فـاعتاض مكانه فـاعتاض مغيث دارًا فوق باب الجزيرة وهو باب القنطرة مقابل الثلمةالتى دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة وكانت دارًا شريفة ذات سقى وزيتون وثمار يقال لها اليُسَّانة كان للملك الذى أسره وكان له فيها بلاط منيف شريف فهى تسمى بالأندلس بلاط مغيث .

ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيـز بن موسى شق ذلك عليه فولى إفريقيـة عبد الله بن زيد[1]لقريش لا أدرى لمن من قريش وإلَى وَالِى إفريقية كـان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية وأمـره سليمان فيما فعله حبـيب بن أبى عبيـــدة وزياد بن النابغـة من قتــل عبد العزيز بأن يتشدد فى ذلك وأن يقفلهما إليه ومن شاركهما ، فى قتله من وجوه الناس ثم مات سليمان فسرح عبـد الله بن يزيد والى إفـريقية على الأندلس الحُرَّ بن عبـد الله الثقفى وأمره بالنظر فى شأن قتل عبد العزيز فلم يستقـر بالحرّ القرار حتى ولى عمر بن عبد العزيز ورحمه الله الخلافة فعزل عبد الله بن يزيد عن إفريقية وولاها إسماعيل بن عبد الله مولى[2] بنى مخزوم وذلك أن الخلفـاء كانـوا إذا جاءتهم جبـايـات الأمصار والآفـاق يأتيهم مع كل جبايـة عشرة رجال من وجوه النـاس وأجنادها فـلا يدخل بيت المال من الجبايـة دينار ولا درهم حتى يحلف الـوفد باللـه الذى لا إلـه إلا هو ما فيهـا دينارًا ولا درهم إلا أخـذ بحقه ،وإنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه ، فأتى وفد إفـريقية بخراجهـا وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغرًا فكـان ما فضل بعد أعطيـات الأجناد وفرائض الناس ينقل إلى الخليفـة فلما وفدوا بخراج إفريقية فى زمـان سليمان أمروا بأن يحلفوا

(=) وتدرب على ركوب الخيل وخوض المعارك . ووجهه عبد الملك إلى الأندلس غازياً مع طارق بن زياد ، فقدمه طارق لفتح قرطبة فى سبعمائة فارس ، فافتتحها سنة ٩٢ هـ وأسر ملكها .
ووقع خلاف بينه وبين طارق ، وبينه وبين مـوسى بن نصير ، فرحل معهما إلى دمشق ٩٦ هـ وخدم سليمان بن عبد الملك ثم عاد إلى الأندلس ، ولم يذكـر مترجموه شيئاً عنه بعد ذلك ، إلا أن نسله كان فى قرطبة وقد يكون سكنها وتوفى بها سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م .

(١) انظر : البيان المغرب ١ / ٤٧ والصواب محمد بن يزيد مولى قريش .

(٢) كان يعرف بتاجر الله لتقواه وزهده .

فحلف الثمانية ونكل إسماعيل بن عبيد الله مولى بنى مخزوم ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولانى فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمهما إلى نفسه فاختبر منهما صلاحا وفضلا ، فلما ولى عمر ولى إسماعيل إفريقية وولى السمح بن مالك[1] الأندلس وأمره أن يخمِّس أرضها ويخرج منها ما كان عنوة ، خمسًا لله من أرضها وعقارها ويقر القرى فى يدى غُنَّامها بعد أن يأخذ الخمس وأن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها ، وكان رأيه انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله فقدمها السمح سنة مائة فوضع يدًا فى السؤال عن العنوة ليميزه من الصلح وفى إخراج البعوث ، وبنى القنطرة وذلك أنه كتب إلى عمر يستشيره ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة فإن أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت فإنْ قِبَلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد وإن أحب صرفت صخر ذلكِ السور فبنيت جسرهم فيقال والله أعلم إن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور وأن يبنى السور باللبِن إذا لا يجد له صخرًا وضع يدًا فبنى القنطرة فى سنة إحدى ومائة ثم هلك عمر رحمه الله فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان[2] أخا حنظلة بن صفوان إفريقية فعزل بشر السمح بن مالك وولى عنبسة بن سحيم[3] الكلبى ثم تتابعت ولاة الأندلس بعد عنبسة فوليها يحيى بن مسلمة الكلبى ثم وليها بعد يحيى عثمان بن أبى سعيد

---

(١) هو السمح بن مالك الخولانى أمير من بنى خولان من قضاعة ، استعمله عمر بن عبد العزيز على الأندلس ، استشهد غازيا بأرض الفرنجة فى وقعة البلاط ، وهو الذى بنى قنطرة فى قرطبة ، مات سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢١ م .

(٢) هو بشر بن صفوان الكلبى أمير المغرب وأحد الشجعان ذوى الرأى والحزم ، ولى مصر أولا سنة ١٠١هـ من قبل يزيد بن عبد الملك ، ثم جاء ه كتاب يزيد بتأميره على إفريقية سنة ١٠٢ هـ فخرج إليها وأقام فى القيروان وغزا ثقلية وغيرها ومات بالقيروان ١٠٩ هـ/ ٧٢٧ م .

(٣) هو عنبسة بن سحيم الكلبى فاتح من الغزاه الشجعان . كان عامل فى الأندلس فى أيام هشام بن عبد الملك وليها سنة ١٠٣ هـ وأوغل فى غزو الفرنجة ، ويرى إيزيدو ، أسقف باجة فى ذلك العصر أن فتوحات عنبسة كانت فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة ومات سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م .

لخثعمى تسعة ثم وليها بعد عثمان حنيفة بن الأحوص القيسى ثم الهيثم بن عضير[1] كنانى ثم عبد الرحمن بن عبد الله[2] الغافقى وعلى يديه استشهد أهل البلاط الشهداء إستشهد معهم وإليهم عبد الرحمن وولى عبد الملك بن قطن المحاربى[3] محارب فهر من ريش وولايته الأولى نحو من ستة أشهر لم تطل .

وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون فى البلاد حتى بلغوا أفرنجة حتى افتتحت عامة الأندلس وكل هؤلاء بشر بن صفوان كان يوليهم بغير أمر الخليفة إذا ره أهل الأندلس واليا كتبوا إليه فعزله عنهم وولاهم من يرضون وكذلك إذا مات ، ثم إن شام بن عبد العزيز رحمه الله بعث على مصر عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث مولى بنى سلول من قيس وجعل إليه أمر إفريقية والأندلس فأقر بشر بن صفوان على إفريقية وولى عقبة بن الحجاج الأندلس وهو مولاه الحجاج أعتق الحارث ، فلما ولى عبيد الله مصر وقد نرف وبلغ وفد عليه عقبة مولاه فأجلسه معه على فراشه ولعبيد الله أولاد لهم فى أنفسهم خطار وفى الناس ، فلما وجدوه جالسا معه نخروا وعاتبوا أباهم وقالوا : عمدت إلى عرابى فأجلسته معك وحولك وجوه قريش والعرب والله ليقعن ذلك فى أنفسهم بحيث

---

1) ورد عند ابن عذارى « الهيثم بن عبيد » .

2) هو عبد الرحمن الغافقى بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقى أبو سعيد أمير الأندلس من كبار القادة الغزاه الشجعان أصله من غافق (من قبيلة عك ، فى اليمن) رحل إلى إفريقية ، ثم وفد على سليمان بن عبد الملك الأموى فى دمشق ، وعاد إلى المغرب فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز أيام إقامتها فى الأندلس ، وولى قيادة الشاطىء الشرقى من الأندلس وكثرت جماعه بعد مقتل السمح بن مالك سنة ١٠٢ هـ فانتقل إلى أربونه ، فانتخبه المسلمون فيها أميراً ، وأقره والى إفريقية ونشأ خلاف بينه وبين عنبسة بن سحيم (أحد القادة) فعزل عبد الرحمن وولى عنبسة بن سحيم مكانه ، فصبر مدة يغزوا مع الغزاه إلى أن ولاه هشام بن عبد الملك إمارة الأندلس سنة ١١٢ هـ .
مات سنة ١١٤ هـ ٧٣٢ م .

3) هو عبد الملك بن قطن بن نهشل بن عبد الله الفهرى أمير الأندلس وأحد القادة الشجعان شهد وقعة الحرة بقرب المدينة فى أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ وتسمى حرة واقم ونجا من مسلم بن عقبة فيمن نجا ، فقصد إفريقية ثم استقر بقرطبة وولى الأندلس سنة ١١٤ هـ بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقى .
مات سنة ١٢٣ هـ ٧٤١ م .

تكره وأنت شيخ لا قاسى عليـك لعل الموت أن يختلسك من أن تستنصر بعداوة أحد و إنما نتـوقع أن يبقى علينا العـار ، ومع ذلك لا نأمن أن يبلغ ذلك أمير المؤمنين فيقع من قلبـه إعظامك هـذا وتصغيرك قريشًا فقال : يـابنى صدقتم ولم ألق بالاً لما ذكرتم وأنـا غير عائد فلما أصبح بعث إلى الناس فأجلسهم وبعث إلى عقبة فأجلسـه فى صدر المجلس وقعد هو عند رِجليه ، فلما اجتمع الناس وكثـروا بعث إلى أولاده فلما دخلوا عجبوا وعلموا أن الشيخ سيطلع بائقة فقـام عبيد الله على رجليه فحمـد الله وأثـنى وصـلى على النبى ﷺ ثم ذكر ما كان من قول أولاده ، ثم قال : أيها الناس أشهد الله و إياكم وكفى بالله شهيدا أن هذا عقبـة بن الحجاج وأن الحجـاج أعتق الحارث وأن أولادى هـؤلاء لعب بهم إبليس وعجَّبهم بأنفسهم فأردت أن أبـرأ إلى اللـه من الكفر ومن حق هـو للـه ولهذا قبلى وخفت أن يترامى الحال بأولادى إلى إنكار حق علمه الله بالتبرى من ولاء هذا وأبيه أن يلعنهم الله واللاعنون فإنى سمعت عن رسول الله ﷺ أنه قـال « ملمون من ادعى إلى غير نسبه ملعون من أنكر نعمة المنعم عليه[1] » وأن أبا بكر الصديق رحمه الله : قال كفر بالله تبر من نسب و إن دق وكفر بـالله ادعاء إلى نسب مجهـول فكرهت لكم يابنّى أن نبـوء بلعنة الله ولعنـة اللاعنين فأكثر نظرى كان لنفسى ولكم ، وأما قـولكم إن الأمر يقع لى عند أمير المؤمنين بحيث أكره كلا أمير المؤمنين أبقاه الله أحلم وأعلم بالله وأرعى لحقوقه من أن يكـون منه ما وصفتم بل يقع ذلك منه موقع رضـاه فشكره الناس ودعوا له ، وقام ولـده وقد أصغرهـم الحق وأقماهـم والتفت إلى عقبه فقال له : ياسيـدى حقك واجب وقد بسط لى أمير المؤمنين حفظه الله ما ترى وأنت عند رضا فإن شئت وليتك إفريقية وليت صاحبها الأندلس إن أحب و إن شئت وليتك الأندلس فاختـار عقبة الأندلس وقال : إنى أحب الجهاد وهى مـوضع جهاد فولاه فـدخل الأندلس ســـنة عشر ومائة فأقـام عليهـا سنـــين وافتتـح الأرض حتى بلغ

---

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة .

أربونة(1) وافتتح جليقيـة(2) وألبة(3) وبنبلونة(4) ولم يتبق بجليقيـة قـريـة لم تفتتح غير الصخـرة فإنه لاذ بها ملك يقـال له بـلاى فدخلهـا فى ثلاثمائة راجل فلم يـزالوا يقـاتلونـه ويغاورونه حتى مات أصحابه جوعًا وتـرامت طائفة منهم إلى الطاعة ، فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلا ليست معهم عشر نسوة فيما يقال إنما كان عيشهم بالعسل ولاذوا بالصخـرة فلم يزالـوا يتقوتـون بالعسل معهم جبـاح والنحل عندهم فى خـروق الصخرة احتوزوا واعيـا المسلمين أمرهم فتركـوهم ، وقالوا ثـلاثون علجـا ما عسى أن يكـون أمرهم واحتقروهم ثم بلغ أمرهـــم إلى أمر عظيم سنذكره إذا بلغنا موضعه إن شاء الله فأقام عقبة على الأندلس حتى لما كانت سنة إحدى وعشرين ثارت البربر على فرق الأباضية والصفرية ورأسوا عليهم ميسرة المحفـوز المدغرى فـرجعوا إلى عامل طنجـة عمر بن عبـد الله المرادى فقاتلهم فقتلوه ثم دخلـوا مدينة طنجة فقتلوا أهلها يقال إنهم قتلـوا الصبيان والله أعلم ، ثم رجعوا يـريدون إفريقيـة وثب كل قوم من البربر على من يليهم فقتلـوا وطردوا فلما شغل صاحب إفـريقية وهو بشر بن صفـوان بما حدث عليه وثب عبـد الملك بن قطن المحاربى محارب فهر على عقبة بن الحجاج(5) فخلعه ولا أدرى أقتله أم أخرجـه فملكها بقية إحدى

---

(1) بفتح أوله ويضم ثم السكون وضم البـاء الموحدة والسكون الواو ونون وهاء ، بلـد فى طرف الثغر من أرض الأندلس .

(2) بكسرتين واللام المشددة ويـاء ساكنة وقاف مكسورة ويـاء مشددة وهاء ، ناحية قـرب ساحل البحر المحيط من نـاحية شمالى الأنـدلس فى أقصاه من جهـة الغـرب ، وصل إليه مـوسى بن نصير لما فتح الأندلس

(3) له ذكر فى الروض المعطار للحميرى .

(4) له ذكر فى الروض المعطار للحميرى .

(5) عقبة بن الحجاج السلولى أمير ، كان من أشراف بنى سلـول ، دخل الأندلس سنة 116 هـ أو سنة 117 هـ ولى عليها من قبيل عبد الله بن الحبحاب أمير مصر وإفريقية .
مات سنة 123 هـ / 741 م .

وعشرين واثنتين وعشرين وثـــلاث وعشرين حتى دخـل بلج بن بشر القشيرى[1] ، ثم الكعبى بأهل الشـام وقد وصـفنا ســبب دخوله فى أحاديث تأتى بعد هذا .

رجع الحديث ومضى موسى بن نصير فقدم على سليمان ، وقد مات الوليد سنة ست وتسعين وهـو ابن ست وأربعين ولـد فى خـلافة معـاوية رحمه اللـه ، واستخلف سليمان فابتدره طـارق ومغيث يشكوان إليه موسى بأقبـح الشكية وأعلماه بما صنع طارق فى المائدة وبمغيث فى الملك القرطبى ، وأنه قد أصاب جوهرًا لم تختـزن الملوك بعد جوهر فارس مثله ولما جاء موسى استقبله الخليفة سليمان وابنه بفعلـه بطارق وبمغيث فاعتذر ببعض العذر فقال : له المائدة فقال هى ذه ، قال : كانت ناقصة الرِّجل ، قال : نعم فحول طارق يده إلى قبائه فأخـرج الرِّجل فعلم سليمان كذب موسـى وصدق طارقٍ فى كل ما رفع إليـه وأمر بمـوسى فحبسـه وأغـرمه غـرمًـا عظيمًا حتى سأل العـرب ، فيقـال إن لخما حملت عنـه فى إعطائهـا سبعين ألفًا ذهبًا وذلك أنه كـان تزوج امرأة من لخم ولها ابن شريف وهـو غلام فكفله ورباه وأحسن إليـه فشكرت ذلك لخم ويقال إنه كان بينـه وبين لخم صهر كان على أخت حبيب اللخمى وعلى ابنـه اجتمع أهل الأندلس حين قتلـوا عبد العـزيز بن مـوسى وهذا أكثر ما بأيدى الناس من مؤالفته للخم .

خروج كلثـوم بن عياض القشيرى[2] إلى إفريقيـة أخرجـه هشام بن عبـد الملك أمير المؤمنين فعسكـر وندب أمير المؤمنين معـه الناس وجعل ولى عهـده أن هلك وكان شيخًـا

---

(١) هو بلج بن بشر بن عيـاض القشيرى قائد شجاع دمشقى من ذوى الحزم سيره هشـام بن عبد الملك على مقدمة جيش كثيف مع عمه كلثوم بن عيـاض إلى إفريقية ، لما ثار أهلها بأميرهم ابن الحبحاب فنزل كلثـوم وبلج بالقيروان ، وقاتـلا البربر ، فقتل كلثـوم سنة ١٢٤ هـ وحصر بلج إلى أن جـاءته مراكب أمير الأندلس فركبها مع أصحابه ، ورحل إلى الأندلس .
مات سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م .

(٢) هو كلثوم بـن عياض القشيرى أمير إفريقية وأحد الأشراف الشـــجعان القـادة ، ولاه هشـــام بن عبد الملك بعد عزل عبيد الله بن الحبحاب .
مات سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤١ م .

كبيرًا ابن أخيه بلج بن بشر فإن هلك بلج فثعلبة بن سلمة العاملى ، وأخرج ثعلبة على جند أهل الأردن وندب من أجناد الشام من كل جند ستة آلاف ، ومن أهل قنسرين[1] ثلاثة آلاف فأخرجه من الشام فى سبعة وعشرين ألفاً ، ثم تحرك بجيوشه وقد أباح له الإباحات ووضع له الأطوياء فأخرج كل شاب يرجى صبره وجلده ، ثم أقبل إلى مصر فأخرج من أهلها ثلاثة ألاف فتم بعثه ثلاثين ألفًا من أهل الديوان سوى من تبعهم من الناس وأمر أمير المؤمنين فى عهده إليه أن يطيع هارون القرنى مولى معاوية بن هشام ومغيثًا مولى الوليد لمعرفتها بالبلد ، وكتب إلى عامل إفريقية أن طاعتك إلى كلثوم بن عمرو فأخرج معه كل من قبلك من الأجناد وأهل التطوع ، وأقبل كلثوم حتى نزل إفريقية فخرج إليه منها فيما يقابل بشرٌ كثير من أهل إفريقية ومن كان معه من أهل طنجة من العرب حتى تم بعثه سبعين ألفا وجعل على رجالة إفريقية مغيثًا ، وجعل على خيلها هارون القرنى ، وبلغ البربر وميسرة إقبالهم فجمعوا وقد وصفنا ما ألَّبهم وحضهم على الخروج وقد يقول من يطعن على الأئمة : إنهم إنما خرجوا ضيقًا من سير عمالهم ، وإن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة فى جلود الخرفان العسلية فتذبح مائة شاة فربما لم يوجد فيها جلد واحد وهو قول أهل البغض للأئمة فإن كانوا صدقوا فما بال التحكيم فشا فيهم ، ورفع المصاحف وحلق الرءوس اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان أصحاب الراسبى عبد الله بن وهب[2] وزيد ابن حصن[3] . فأقبل ميسرة وقد جمع جموعاً ليس يُحصى عددها حتى لقى كلثوم بن عياض بموضع يقال له بقدورة فلما رأى كلثوم ما انحاس عليه خندق ثم أتى هارون ومغيث فقالا له : خندق أيها الأمير وتلوَّم بالكراديس وأعطنا الخيل نخالفهم إلى قراهم ودراريهم فهمَّ بذلك حتى جاء ابن أخيه وولى عهده بلج وكان لا يعصيه فقال : لا

---

(١) له ترجمة فياضة فى معجم البلدان لياقوت الحموى .

(٢) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهرى بالولاء المصرى ، ولد سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، ومات سنة ١٩٧ هـ / ٨١٣ م من أصحاب الإمام مالك له الجامع والموطأ .

(٣) له ذكر فى فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس .

تفعل ولا يرعك كثرة هؤلاء فإن أكثرهم عريان أعزل لا سلاح لهم ، فناشبهم القتال وعلى خيله بلج وعلى خيل إفريقية هارون القرنى وعلى رجالة إفريقية مغيث ونزل كلثوم فى رجالة أهل الشام فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، وجعل بلج يشد عليهم بخيله فيستقبلونه ، بالجلود اليابسة فيها الحجارة فتنفر خيل أهل الشام وعمدوا إلى الرمك الصعبة فعلقوا فى أذنابها القرب والأنطاع اليابسة ، ثم وجهوها نحو عسكر كلثوم فنفرت الخيل ونادى الناس فنزل أكثرهم وكان ذلك حاجة البربر لكثرتهم وأنهم لم تكن لهم خيل تكافىء خيل المسلمين فلما نزلوا بقى بلج فى طائفة من خيله اثنى عشر ألفًا ويقال سبعة آلاف وهو أصح العددين فلما نزل الناس وقد اقتحمت الرمك[1] التى وصفنا فانتقضت الصفوف ، وزحفت البربر وبلج يشد عليهم ولا يكاد يقدر عليهم خيله لما كانت تنفر به وأقبلوا راجعين حتى خالطوا صفوف أهل الشام وحتى لم تجد الخيل موضعاً تشد فيه فلما رأى بلج شدة إقحامهم شد شدة اشتعالٍ ، حتى شق جمعهم كله فذهب يكر فاستقبلوه بالقتال فصارت طائفة تقاتل كلثومًا ، وطائفة تقاتل بلجا فحالوا بينه وبين الرجوع إلى عسكره ، وصار فى دبر عسكر البربر يقاتله طوائف منهم قد كاثروه وزادوا ومضى عظم الناس مع ميسرة حتى لصقوا بكلثوم فقُتل حبيب بن أبى عبيدة القرشى وقُتل مغيث وقُتل هارون وانهزمت خيل أهل إفريقية ورجالها ، وثبت كلثوم فمر رجل من أهل الشام فلقد أخبرنى من لا اتهم أنه ضرب على رأسه بسيف فوقعت فروة رأسه على عينيه فردها ثم نادى فى أصحابه فذبوا عنه ذبا ضعيفاً وهو يقول ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم** »[2] يتلو الآية . ثم تلا « **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً** ﴾[3] فهو يقرأ هذه الآية حتى شدت البربر شدة أخرى فصرع وقتل أصحابه ولم تؤخذ الراية بعد وانقصفوا انقصافًا قبيحة لا رجعة لها ، وركب منهم من ركب منهزمًا إلى إفريقية وأتبعوهم يقتلونهم

---

(١) بفتح أوله وثانيه ، يقال رمك بالمكان يرمك رموكا أقام به .

(٢) ١١١ م التوبة ٩ .

(٣) ١٤٥م آل عمران ٣ .

ويأسرونهم فثلث أهل الجيش مقتـول ، وثلث منهزم ، وثلـث مأسور ، وبلج يقـاتل أهل معسكرهم قد أوقفهم وأوقفـوه وقد أذرع فيهم القتل ولكنهم من كثرتهم لا يحصى من قتل منهم فهو فى ذلك ، حتى إذا فرغوا بكلثـوم وأصحابه رجعوا إليه فلما رأى ما لا طـاقة له به انهزم ماضيا فى بـلادهم وأتبعوه حتى اضطروه إلى البحر الأخضر ، ولاذ بمـدينة سبتة وقبل ذلك قد رام دخـول طنجة فلم يمكنه دخـولها وجدها قـد ضبطت فمضى حتى أتى سبتة فدخلها وهى مـدينة حصينة ذات عمران وخير كثير فيما حولها فجمع المعـاش وضمه إليها فلم يجد منه ما فيـه إلا شيئا من بلاغ ، ثم أرجعوا إليه جيشـا فخرج إليهم فهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعًا ، ثم بعثوا إليه جيشًا ففعل مثـل ذلك حتى بعثوا إليه خمسة جيوش أو ستة فلما رأوا أنه لا يبقى له جيش سموه الأرض ، وأقفروا حـوله مسيرة يومين فجعل يخرج وأصحابه فيغـيرون حتى نفـد المغار وانقطـع عنهم المعـاش فجاعـوا حتى أكلوا دوابهم ومكنوا فى [المدينة](١) حتى دخلوا الأندلس وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه إن شاء الله .

فلما انهزم أهل الشـام وأتت هـزيمتهم وقليل من فلَّهم الشـام عظم ذلك على هشـام وأهل الشـام ونـدم على إخراج أهل الشـام وإن لم يخرج معهم أهل العـراق أو غيرهم لئـلا يؤتى جيشـه من قلة وإنما أتـوا من طريق القلـة ، ثم حلف لئن بقى ليخرجـن إليهم مائة ألف كلهم يأخـذ العطاء ، ثم ليخرجن مـائة ألف ثم ليخرجن حتـى إذا لم يبق غير نفسه وغير بنيه وبنيهم أقـرع بينه وبينهم ، ثم أخرج نفســه إن وقعت عليه القرعـة فأخرج إليهم حنظلة بـن صفوان الكلبى أخـا بشر بن صفوان صاحـب إفريقية حتـى يأتيه رأيـه وخاف البربـر أن يغلبوا على إفـريقيـة فى ثلاثين ألفـاً وأمره أن لا يبرح من إفـريقيـة فعجله إليهـا ليضبطها حتى يمده بالرجال والأموال ففعـل حنظلة ، ثم أخرج إليه جيشاً فيه عشرون ألفًا وكانت وقعـة كلثوم وقتله وقتل من قتل معه وكـان ممن قتل معه حبيب بن أبى عبيدة سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وأقبل حنظلة فى سنة ثلاث وعشرين ومائة فنزل إفريقية ثم توافت

---

(١) إضافة من ابن عبد الحكم .

إليه أمداده وجمع له ميسرة فى سنة أربع وعشرين ومائة فالتقى حنظلة والبربر وكان البربرقد جاشوا عليه بعسكرين عظيمين لا يوصف عددهما وكان هشام مريضًا ، وكان مرضه الذى مات فيه فحدثت والله أعلم أنه جعل يقول : يا حنظلة ابدأ بإحدى الطائفتين قبل الأخرى فظنوه يهجر فالتقى حنظلة والبربر فقضى أن بدأ بالعسكر الواحد ونزل بموضع يقال له القرن(١) فقتله ثم مضى إلى العسكر الآخر وكان نزوله بموضع الأصنام فقتلهما فى عقب سنة أربع وعشرين ومائة فكتب إلى هشام بالفتوح واستشاره فى الإقدام على بلد البربر فأتى كتابه هشاما وهو يجود بنفسه فمات هشام رحمه الله فى شعبان سنة خمس وعشرين ومائة .

ثم رجع الحديث إلى دخول بلج الأندلس قال : وأقام بلج بعد قتل عمه كلثوم قريبًا من سنة حتى أكلوا دوابهم وأكلوا الجلود وأشرفوا على الهلاك .

وولى الأندلس ابن قطن وأغاروا مرارًا حتى أتتهم قشور الجزيرة من الأندلس وكتبوا إلى عبد الملك بن قطن يستغيثونه ويمتون إليه بطاعة أمير المؤمنين والعربية فتغافل بهم وسره هلاكهم وخافهم على سلطانه فلما رأت عرب الأندلس استغاثتهم وهلكتهم أمدهم رجل من لخم يقال له عبد الرحمن بن زياد الأخرم بقاربين قد شحنهما بالشعير والإدام فأتاهم ذلك فنالوا منه ، ولم يبلغ منهم مبلغاً ، حتى أشرفوا على الهلاك وحتى حملت الأرض فأكلوا البقل والعشب فقُضى أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة وثبوا فى أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم وأخرجوا عرب استرقة والمدائن التى خلف الدروب فلم يرع ابن قطن إلا فلّهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم فإنهم كانوا أكثر من البربر فلم يهج عليهم البربر فأخرج إليهم عبد الملك جيوشًا فهزموها وقتلوا العرب فى

---

(١) بالفتح ثم السكون وآخره نون ، ومعناه يأتى فى اللغة على معان ، القرن الجبل الصغير والقرن قرن الشاه والبقر وغيرهما والقرن من الناس .
والمقصود جبل بإفريقية له ذكر فى الفتوح .

الآفاق فلما رأى ذلك وخاف أن يلقى ما لقى أهل طنجة وبلغه إعداد البربر له لم ير شيئًا أعز له من الاستمداد بأهل الشام فبعث إليهم السفن فأدخلهم إرسالاً وبعث إليهم بالأطعمة والإدام واشترط عليهم أن يعطوه من كل جند من قوادهم عشرة رهن يضعهم فى الجزيرة فى البحر فإذا فرغوا له فى الحرب جهزهم وحملهم إلى إفريقية فرضوا بذلك ، وأعطوه عهدًا أن يحملهم إلى إفريقية جملة لا يفرقهم ولا يعرضهم البربر ومعهم فى جملتهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى .

وقد قُتل أبوه حبيب بقدورة فأدخلهم فى سنة ثلاث وعشرين وأخذ رهنهم وأقرها بجزيرة أم حكيم فى البحر وهم قد هلكوا وعروا فلم يكونوا يستترون إلا بالدروع حتى نزلوا الجزيرة بالأندلس فوجدوا بها جلوداً مدبوغة كثيرة فقطعوا منها المدارع ، ثم أقبلوا إلى قرطبة فكسا ابن قطن خيارهم أعطاهم كلهم عطاء فلم يكن فيه ما يغنيهم واستقبلهم عرب بلد الأندلس وهم ملوك ، فكسا كل رجل من خيارهم خيار عشيرته وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا وكانت قد رأست البربر بالأندلس على أنفسهم ابن . . . [1] وحشدوا من جليقية واستورقة وماردة[2] وقورية[3] وألبيرة فأقبلوا فى شيء لا يحصيه عدد حتى أجازوا نهر يقال له تاجة يريدون عبد الملك بن قطن وأخرج إليهم عبد الملك ابنيْه قطناً وأمية فى عرب الشام أصحاب بلج وعرب البلد فلما بلغ البربر إقبال الجيوش إليهم حلقوا رءوسهم اقتداء بميسرة ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا ، ثم أقبلوا إلى مدينة طليطلة وصمد قطن بمن معه وأمية بمن معه صمدهم فالتقوا فى أرض طليطلة على وادى سليط فاقتتلوا قتالاً شديدًا وأقبل أهل الشام عليهم حنقين فقاتلوا قتال مستبسلين

---

(١) بياض فى الأصل .

(٢) بكسر الراء والدال ، كورة واسعة من نواحى الأندلس متصلة بحوز قريش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة .

(٣) بالضم ثم السكون والراء مكسورة وياء خفيفة ، مدينة من نواحى ماردة بالأندلس كانت للمسلمين وهى النصف بينها وبين سمورة مدينة الأفرنج .

فمنحهم الله أكتافِ البربر فقتلوهم قتلاً ذريعًا أفنوهم به فلم ينج منهم إلا الشريد فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش فى أرض الأندلس فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم فلما فرغوا كروا قافلين إلى قرطبة فقال لهم عبد الملك : أخرجوا قالوا نعم أخرجنا إلى إفريقية فقال ليست لنا صناعة تركبونها معًا وقد صارت لكم خيول ورقيق وكُسّى ولكن اخرجوا إرسالاً إلى إفريقية قالوا لانخرج إلا مجتمعين قال : فأخرجوا إلى سبتة[1] قالو له : تعرضنا لبربر طنجة أقذف بنا فى لجة البحر أهون علينا فلما رأوا ما يريد بهم وثبوا عليه فأخرجوه من القصر وأدخلوا بلجا صاحبهم وبايعوا له ونزل ابن قطن داره وهى التى يقال لها دار أبى يعقوب وهرب ابناه فلحق أحدهما بماردة ولحق الآخر بسرقسطة فأقاموا أياما يجيلون رأيهم واختلط أمر الناس بالأندلس وأمسك والى الجزيرة عن إمداد الرهن الذين فى جزيرة أم حكيم بما يعيشهم من الطعام والماء والجزيرة التى هم فيها لا ماء لها وهى جزيرة أم حكيم فمات من الرهن الذين فى جزيرة أم حكيم رجل من أشراف أهل الشام فلما بعث بلج فى إخراجهم وأقبلوا إليه وشكوا ما ركبهم به ابن قطن وقتله صاحبهم بالعطش وقالوا اقدنا منه فقال لهم بلج : وَيْحُكم لا تفعلوا فإنه رجل من قريش ، وكان موت صاحبكم على شبه الخطأ ولكن أمهلوا حتى نرى ما تصير إليه الأمور فثارت اليمن بكلمة واحدة فعسفوا بلجا وقالوا أحميت بمضر ، فلما خاف فسادهم وتفرق كلمتهم أمر به فأخرج وهو شيخ كأنه فرخ نعامة وهو ابن تسعين سنة أو أكثر حضر الحرة مع أهل المدينة ومنها فل إلى إفريقية فأخرجوه وهم ينادونه يا فالّ فللت من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرّة ، ثم بعث جند أمير المؤمنين فأخرجوه إلى رأس القنطرة فقتلوه وصلبوه عن يسار الطريق وصلبوا عن يمينه خنزيراً وصلبوا عن يساره كلبا فأقام يوما ثم إن موالى له من البربر من أهل المدور طرقوه فسرقوا خشبته فكان المكان يقال له مصلب عبد الملك بن قطن حتى ولى يوسف بعد ذلك فبنى فيه أمية بن عبد الملك مسجدًا فانقطع

---

[1] بفتح أوله ، وهى بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى البحر ، وهى على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس .

الاسم ، وقالوا مسجد أمية وهدم ذلك المسجد بعد ذلك يوم هاج أهل قرطبة على الحكم ابن هشام وصار موضعه برحا فانقطع عنه الاسمان اسم المصلب واسم المسجد إلا من عرف ذلك فلما بلغ ابنيه ما كان حشدًا من أقصى أربونة[1] وراجعا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام فإذا فرغوا كان لهم فى أهل البلد رأى فأقبل قطن وأمية ومعهما عبد الرحمن بن حبيب وكان فى أصحاب بلج فلما صنع بعبد الملك ما صنع انحاز عنه وخرج عن دعوة أهل الشام ، وأقبل معهم عبد الرحمن ابن علقمة اللخمى صاحب أربونة فأقبلوا فى مائة ألف أو يزيدون راجعين إلى بلج وأصحابه بقرطبة وقد رحل فلّال كثير من أهل الشام كانوا فى القرى والجبال ومن إفريقية فلم يقووا على الرجوع إلى الشام حتى صاروا فى اثنى عشر ألفاً سوى عبيد كثير اتخذهم من أهل البلد والبربر حتى بلغوا من قرطبة على بريدين إلى موضع يقال له أقْوه برطورة فخرج إليهم بلج فى أصحابه فقاتلهم فلم يقوموا له ولم يصبروا إلا صبرًا يسيرًا إلا أن عبد الرحمن بن علقمة اللخمى وكان يعد فارس أهل الأندلس قد قال لهم ، أرونى بلجا فوالله لأقتلنه أو لأموتن دونه فأشاروا له إليه ، وقالوا صاحب الفرس الأبيض فشد بخيل الثغر فانفرج أهل الشام عن بلج والراية فى يده فضربه بالسيف على رأسه ضربتين ، ثم أن الحصين بن الدجن العقيلى شد على ابن علقمة فضربه ضربات بالسيف وجعله بعد من باله فكان عبد الرحمن لا يقف بموضع إلا قاتله حصين بخيل قنسرين[2] فقطع عاديته وشغله بنفسه ، وشد عليه شدات يلحقه بكل شدة بالصفوف ويضربه فى عامتها ، إلا أنه فارس نجدةٍ معه جودة الانتقاء وعليه سلاح كريم لا يحيك فيه سيف حصين حتى انهزموا هزيمة قبيحة وأتبعوهم يقتلونهم ويأسرونهم ، ثم راجعوا فمات بلج إلى أيام يسيرة يقال من ضربتى ابن علقمة ويقال بل أجل حضره والله أعلم .

---

(١) بفتح أوله ويضم ثم السكون وضم الباء الموحدة وسكون الواو ونون وهاء ، بلد فى طرف الثغر من أرض الأندلس ، بينها وبين قرطبة ألف ميل .

(٢) بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديدة وقد كسره قوم ثم سين مهملة ، وهى فى بلاد الشام .

وولى أهل الأندلس ثعلبة بن سلمة العـالمى فجمع له أهل البلد والبربـر جمعًا بماردة فخرج إليهم فجـاشوا عليه بما لا طاقة لـه به وقاتلهم قتالاً شـديدًا فلم يغن مُغْنٍ فلما رأى ذلك اعتصم بمدينة مـاردة وبعث إلى خليفته بقرطبة أن يتحمل إليه ببقية أصحـابه لمناجزة أهل البلد فبينـاه محصوراً قد نزل أهل البلـد من البربر والعرب وجلهم البربـر على ماردة إذ حضرهم عيـد فِطْرًا وأضحى فأبصر ثعلبـة غـرتهم وانتشارهم وكثـروا فـانتشروا فلما كـان صبيحـة العيد خـرج عليهم فهزمهـم وقتلهم قتلا ذريعـا ، ثم سبى ذراريهم ولم يكن بلج قبله تعرض للذرية بسباء فأقبل من السبى بعشرة آلاف أو يـزيدون حتى نزل المسارة بقرطبة وقد بلغ صاحب إفريقية ما فى أهل الأندلس ، ووفد إليه من صالحى أهلها وكتب إليه أن أغثنـا بوالٍ يجمعنـا ويأخذ بيعتنـا له ولأمير المؤمنين حتى يصير الشـام والبلدان على دعـوة واحدة فقد أفنانا القتل وخِفْنا العدو على ذرارينـا فبينا ثعلبة نازل بالمسارة يبيع ذرارى أهل البلد وسعهم فى رحالهم ولقد بلغنا أنه باع أشياخهم فيمن ينقص بهم ، لقد قيل إنه صاح على بن الحسن رجل كـان بالأندلس مـن أهل المدينة وعلى الحارث بن أسد مـن جهينة من أهل المدينة فقال : من يخسر على هذين الشيخين فقال قائل : أحدهما عندى بعشرة دنانير فقال الصائح من ينقص فلم يزل يصيح من ينقص حتى بـاع أحدهما بكلب والآخر بعتود فبيناه على هذا إذ جاء هم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى(١) واليًا من قبِلَ حنظلة بن صفوان والخليفـة بعد الوليد بن يـزيد وهم نزول بالمســارة فسمعوا وأطاعوا وكـان رجلاً من خيار أهل الشام مـن أهل دمشق ، فرضى به الشاميون والبلـديون وأطلق الأسرى والسبى فسمى ذلك العسكر عسكر العافية وصارت الكلمة جامعة وأفلت ثعلبة بن سلامة وعثمان ابن أبى تسعة وعشرة من قواد الشام وأمن ابنى عبـد الملك بن قطن فاستقامت حال الناس بالأندلس وأنزل أهل الشام فى الكور .

---

(١) هو حســام بن ضرار الكلبى أبو الخطار أمير الأنــدلس ، كان حازماً شجـاعاً فصيحاً شـاعراً ، ولاه حنظلة بن سفيان (والى إفريقية هشام بن عبد الملك) إمارة الأندلس .
مات سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م .

ذكر دخـول عبد الـرحمن بن معاويـة الأندلس والسبب الموجب لـذلك وما آلـت إليه أحواله مختصرا إن شاء الله تعالى لما كان من أمر مروان بن محمد رحمه الله ما كان وانصرم أمر بنى أمية بـالمشرق وتغلب على ملكهم بنو العباس وقُتل مروان فى سنـة اثنتين وثلاثين فسِير برأسه إلى السفـاح ثم سير به إلى أبى العباس ببغداد وهـو معسكر بها ، وتتبع السفاح بنى أمية حيث كـانوا يقتل ويمثل أخذ أبان بن معـاوية فقطع يده ورِجله ثم طيف بـه فى كور الشـام ينادى على رأسـه هـذا أبان بن معـاويـة فارس بنى أميـة حتى مـات وقتلوا النسـاء والصبيان فقـد ذبحوا عبدة بنت هشام بن عبـد الملك ذبحاًوذلك أنهم سألوهـا عن كنوز وجوهر فلم ترد عليهم كلمة فذبحـوها ، وهرب عنهـم وجوه من بنى أمية لهم أسماء وأقدار وتغيبوا عنـد العرب وأفناء النـاس فلم يجدوهم وكان فيمن تغيب عبد الـواحد بن سليمان والغمر بن يزيد وغيرهما فلم يروا أنهم صنعوا شيئـا ، وتوثقوا من سليمان بن هشام خوفا أن يصر مكيـدتهم فيهرب فأظهـروا الندم على مـا كـان بزعمهم فأمنـوا من بقى ورفع السيف وكتب إليهم أن أمير المؤمنين قـد نـدم على مـا كان فى بنـى أمية وأحب البقـاء وقـد أمـرنى بتأمينهم فقد أمنتهم فلا أعلمن أحدًا يعرض لهم بمكروه ونادى مناديه بذلك فى كور الشام وفى عسكره وهـو بكسكر فلما شـاع ذلك بعثوا رسـلاً فاستأمن منهم بضعـا وسبعين رجلا ليس منهم من غيرهـم إلا صهـر لهم من كلب ورجل من مواليهم وكـان فيهم عبد الـواحد والغمر والأصبغ بن محمـد بن سعيد وجماعة ممن لا أسميه فجعلـوا كلما جاءهـم رجل منهم قربـوه وأنزلوه وأعطوه عهـوداً مستأنفة ألا يروا مكروهـا حتى يلحقوا بأمير المؤمنين وأن أمير المؤمنين قد أمنهم وأراد الإبقاء عليهم فأخبرنى من أثق بـه من المشايخ أن الأمانات بُسطت لهم حتى تداعى كـل من هرب وكان يحيى بن معـاوية بن هشـام ساكنـا من الموضع الذى عسكر فيه صالح بن على على سبعة أميـال فثبت فى منزله ولم يضطرب مع من اضطرب فى العسكر منهم وقال : إذا حضر فصل أمرهـم غشيتهم لقربـه منهم فأقام الناس ينتظرون ما يكون فطال ذلك حتى أقبل المدنى والعراقى والمصرى من بنى أمية .

فبعث يحيى بن معاوية رسولاً ينظر ما يكون فوافق القوم يقتلون فرجع مسرعا فسقط فى

يديه فلم يتفق له هرب حتى قربت الخيل فى تلك القرى القريبة وكان يومه ذلك غائبا فى الصيد فوقع الخبر عليه فى جوف الليل فهرب وأوصى أن يتبع بولده أبى يعقوب وأختيه أم الأصبغ وأمَة عبد الرحمن قال : فلما اجتمع بنو أمية عند السفاح قعد لهم وأدخلهم على نفسه فى سرادق له ليرسلهم بزعمه إلى أمير المؤمنين فلما توافوا ميز منهم عبد الواحد بن سليمان قريبا منه مكافة باليد التى كانت عندهم فجعل يذكرها له ويرجيه حسن رأيه فيه والأحراس وقوف عليهم عمد الحديد فأشار إليهم وقال : دهدهوا رءوسهم فوضعت عليهم فشدخوا ثم قال لعبد الواحد : لا خير لك فى البقاء بعد قومك وسلطانك وقد أبرزناك أن تقتل بالسيف وأمر به فقُتل صبراً قال : وفعل ذلك بالغمر بن يزيد وبعث برءوسهم إلى أبى العباس فلما جاءته أمر بضرب عنق سليمان بن هشام قال : وكان بقايا بنى أمية لما سمعوا الأمان تراجعوا إلى منازلهم فى أقاصى الكور تمت بهم عدة قتلى نهر أبى فطرس وهم ثلاثة وسبعون وأياهم عنى حفص بن النعمان[1] .

أين أصحاب العطايا منهم	والبهاليل بنو الصيد النُجب
من يرد يسئل عنهم فهُم	حيث ... من فوق الخشب

ثم اشتد الطلب على بنى أمية فهربوا فى الآفاق وكانوا يسمعون فى الرواية أن مستراحهم بالمغرب فنزع أكثرهم إلى إفريقية فنزع إليها السفيانى الثائر وأبناء الوليد بن يزيد العاص وموسى وحبيب بن عبد الملك بن عمرو بن الوليد ، وقبل ذلك ما نزع إليها جُزَى بن عبد العزيز بن مروان وعبد الملك بن عمر بن مروان إذ قتل الخليفة مروان فتوافد إفريقية بشرٌ كثير ، وكان واليها عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى لم يكره نزوعهم إليه ولجأ إليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام رحمه الله ، وكان بدوّ حديثه باختصار أنه

---

(١) له ترجمة وافية فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ومعجم الشعراء للمرزبانى .

لما أمن أهل أبى فطرس ، وكان غلامًا حدثًا هاج أمر المسودة وهو ابن سبع عشرة سنة رجع إلى منزل له بدير حنا من كورة قنسرين فأقام به وجمع بعض إخوانه وعياله ، وكان قد ولد له سليمان المكنى بأبى أيوب وكان مولده سنة ثلاثين فى سلطان مروان فأخبرنى من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من بدوّ حديث هربه قال : لما أمنا وشاع ذلك ركبت متنزها فوقع بهم وأنا غائب فرجعت إلى منزلى فنظرت فيما يصلح أهلى ويصلحنى وخرجت حتى صرت فى قرية على الفرات ذات شجر وغياض وأنا والله ما أريد إلا المغرب ، وكنت قد بلغتنى رواية كان والدى رحمه الله قد هلك فى زمن جدى رحمه الله وكنت صبيا إذ هلك فأقبل بى وبإخوتى إلى الرصافة إلى جدى ومسلمة بن عبد الملك رحمه الله لم يمت بعد ، فنحن وقوف ببابه على دوابنا إذا سأل مسلمة عنا فقيل أيتام معاوية فأغرورقت عيناه بالدمع ثم دعا بنا الاثنين فالاثنين فأقبل يدعو بنا حتى قدمت إليه فأخذنى وقبّلنى ثم قال للقيم : هاته فأنزلنى عن دابتى وجعلنى عن أمامه وجعل يقبّلنى ويبكى بكاء شديدًا ، فلم يدع بعدى من كان أصغر من أخوتى وشغل بى فلم يفارقنى فأنا أمامه على سرجه حتى خرج جدى فلما رآه قال : ما هذا يا أبا سعيد فقال : بُنَىّ لأبى المغيرة رحمه الله ثم دنا من جدى فقال له تدانى الأمر هو هذا ، قال : أهو قال إى والله قد عرفت العلامات والأمارات بوجهه وعنقه ، قال : ثم دعا القيم فدفعت إليه وأنا ابن عشر سنين يومئذ أو نحوها فكان جدى رحمه الله يؤثرنى ويتعاهدنى بالصلة والبعثة التى فى كل شهر وكنا بكورة قنسرين بيننا وبينه مسيرة يوم حتى مات ، ومات مسلمة أبو سعيد قبله لسنتين فكانت تلك فى نفسى مع أشياء كانت تذكر فإنى لجالس فى القرية فى دار كنا فيها ولم يلغنا بعد إقبال المسودة فكنت فى ظلمة البيت وأنا رمد شديد الرمد ومعى خرقة سوداء أمسح بها قذا عينى والصبى سليمان يلعب وهو ابن أربع سنين أو نحوها إذ دخل من باب البيت فترامى فى حجرى فدفعته لما كان بى ، ثم ترامى وجعل يقول ما يقول الصبيان عند الفزع قال : فخرجت فإذا أنا برايات مطلّة فلم يرعنى إلا دخول أخى فلان فقال : ياأخى رأيت المسودة وكنت لما فعل بى الصبى ما فعل قد خرجت فرأيتهم ، فلم أدرك شيئًا أكثر

من دنانير تنـاولتها ثم خرجت أنـا والصبى أخى وأعلمت أخواتى أم الأصبغ وأمَـة الرحمن بمتوجهى وأمرتهما أن يلحقنى غلامى بما يصلحنى إن سلمت فخرجت حتى اندسست فى موضع ناءٍ عن القرية وأقبلوا فأحاطوا بـالقرية ثم بالدار فلم يجدوا أثراً ومضينا حتى لحقنى بـدر ، ثم خرجت حتـى أتيت رجلا على شـاطىء الفـرات وأمرتـه أن يبتـاع لى دوابًّا ومـا يصلحنى فأنا أرقب ذلك إذ خـرج عبد له أو مولى فـدل علينا العامل فأقبل إلينا فـوالله ما راعنا إلا بجلبة الخيل إلينـا فى القرية فخرجنا نشتد على أرجلنا وأبصرتنـا الخيل فدخلنا بين أجنة على الفرات واستـدارت الخيل فخرجنا وقد أحـاطت بالأجنة فتبادرنـا ، وسبقناها إلى الفـرات فترامينا فيـه وأقبلت الخيل فصاحـوا علينا ارجعـا لا بأس عليكما فسبحت وسبح الغلام أخى فلما سرنـا ساعة سبقتـه بالسباحـة وقطعت قدر نصف الفـرات فالتفت لأرفق وأصيح عليه ليلحقنى فإذا هـو والله لما سمع تأمينهم أيـاه وعجَّل خاف الغـرق فهرب من الغـرق إلى الموت فنـاديتـه أَقْبِلْ يـاحبيبى إلىّ فلم يأذن اللـه بسماعى فمضى ومضيت حتى عبرت الفرات وهـمَّ بعضهم بالتجرد ليسبح فى أثـرى ثم بدا لهم ، وأخذوا الصبى فضربت رقبته وأنا أنظر وهو ابن ثلاث عشرة سنة رحمه اللـه قال : ثم مضيت فهذا حديثه رحمه الله ومن حـديث غيره أنه مضى حتى أتى كـورة فلسطين وقد ألحقت بـه أخته أم الأصبغ بـدرًا غلامه وسالما أبا الشجاع غلامها وكانت شقيقته ابنة أمه ومع الموليين نفقة وشىء من جوهر فلحقاه حيث لحقاه لا أدرى ، ومضـى حتى أتى إفريقية وقد توافى بها جماعـة من أهل بيته وكان عنـد عاملها ابن حبيب يهودى كـان قد صحب مسلمة بن عبـد العزيز فكـان يقول يغلب على الأنـدلس رجلٌ من أبنـاء الملوك يقـال لـه عبد الـرحمن لـه ضفيرتان فكـان ابن حبيب[1] قد أرسل ضفيرتين رجاء للـرواية فكان اليهودى يقـول له : لست أنت من أبناء الملوك فكان يقـول : بلا والله فلما جاءه عبـد الرحمن ونظر إليه فإذا هـو ذو ضفيرتين فدعا اليهودى وقال له : ويحك هذا هـو وأنا قاتله قال له اليهودى : والله لئـن قتلته ما هو هو

---

(١) المقصود به المؤرخ عبد الملك بن حبيب

ولئن تركته إنـه لهو ثم تجنى على ابنى الوليد ابن يزيـد فقتلهما ، وأخذ مالاً مع إسماعيل بن ريان بن عبد العـزيز ، وغلبه على أخته فتزوجهـا وأراد عبد الرحمن بن معاويـة فأتاه رجال فأنذروه فرفع رأسه فخـرج هو وعامة أصحابه الذين بقوا منهم فـافترقوا فى بلاد البربر فسار عبد الـرحمن بن معاوية إلى مـوضع يقال له بـارى فنزل فى قبيلة يقـال لها مكناسة فكـان له عنده مضيق يطـول ذكره ، ثم خرج من عنـدهم حتى بلغ البحر فنزل بسبرة فكـان فى نفزة وهـم أخواله كانت أمه نفزية وبدر معه وكان سالم قد فارقه بإفريقية لسبب كان ، وذلك أنه كان محتميا عـاتبا فبيناه قاعـد إذ دخل على عبد الرحمن بعض بنى عمه فصـاح به فلم ينتبه فأمر بماء فصب على وجهه فامتعض ورجع إلى الشام ، وكـان أبو الشجاع عالماً بالأندلس وذلك أنه كان دخلهـا مع ابن نصير أو بعده وغزا صوائف الأنـدلس فشق على ابن معاوية فراقه فرجع إلى أم الأصبغ بالشام .

ثم رجع الحديث إلى ولايـة أبى الخطار الأندلسى قـال : فأقام عليـه أربع سنين وستة أشهر إلى تاريخ ثمان وعشرين ومـائة وكان قد قدم الأنـدلس فى إمداد أهل الشام الصميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن[1] وكان أصله من الكوفـة فلما قتل جده شمر الحسين بن على رحمه الله قتل المختار شمرا بعد ذلك فارتحل ولده عن الكوفة فصاروا بالجزيرة ثم لما جُنِّد جند قنسرين صار الصميل فيه ودخل الأندلـس لسبب دم أصحابه فرأس بالأندلس ودانت له قيس الأنـدلس وفاقهم بالنجدة والسخـاء فأغتَّم بذلك أبو الخطـار ودخل عليه يوما وعنده الجند فأحب كسره فلكز وشُتم فخرج عنه فأتى داره وبعث إلى خيار قومه فشكا إليهم ما لقى فقـالوا لـه : نحن لك تبع ، فقال : والله مـا أحب أن أعرضهم القضـاعية واليمانية ولكن اللطف ندعـوا بالله مرج راهط[2] وندعوا لخما وجذامـا وندخل منهم رجلا

---

(١) هو الصميل بن حـاتم بن شمر بن ذى الجوشن الضبـابى شيخ المضرية فى الأندلس ، وأحـد أمراء الدهاة الشجعان الأجواد .

قدم الأندلس فى إمداد الشام أيام بنى أمية ، مات سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م .

(٢) بنواحى دمشق ، وهو أشهر المروج فى الشعر .

نقدمـه يكون له الاسم ولنا الخط قـال : فكتبوا إلى ثوابة بن سلمـة الجذامى وكان من أهل فلسطين ثم ساروا حتى وفـدوا عليه فأجابهم وإجـابتهم لخم وجذام فبلغ ذلك أبـا الخطار فغزاهم فى جماعـة أهل الأندلس فلقيهم ثوابـه بناحية نهر شـذونة فانهزم أبـو الخطار وأسر وقتل قليل من أصحـابـه ثم رفع السيف عنهم ، وأقبل ثـوابـة بن سلمـة حتى دخل قصر الأندلس وأبـو الخطار معه فى قيـوده فولى ثوابـة سنة ثم مات فى سنـة تسع وعشرين ومائة فاجتمع أهل الأندلس على يـوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهـرى بعد اختلاف شديد إلا أنه لم تكن فى ذلك حرب .

كان يحيى بن حريث الجذامى من أهل الأردن قد دعا إلى نفسه فقال ثوابة بن عمرو[1] وأنا أولى بهذا الأمر فلم يزالوا يتراوضون الأمر بينهم حتى اجتمعوا على يوسف بأن تركوا كورة رية ليحيى بن حريث وبها سكنى أهل الأردن فرضى يحيى قال واجتمعت قضـاعة فرأسوا على أنفسهم رجلا يقال له عبد الـرحمن بن نعيم الكلبى فجمع مائتى رجل وأربعين فارسا ، ثم بيت القصر بقرطبـة فطرد الأحـراس وهجم على السجن فأخرج أبا الخطـار وهرب بـه ليلة فأقام به فى كلب وقبائل من حمص فاكتنفـوه ومنعوه ففر ولم يحدث شيئاحتى اجتمع الناس على يـوسف فلما استقام ليـوسف الأمر لم يلبث أن غـدر بـابن حريث وعـزله عن الكـورة فغضب ابن حريث وكَاتَب أبا الخطار حتى اجتمعـا فقال أبو الخطار : أنا الأمير وقال ابن حريث : بل أنا أقـوم بالأمر لأن قومى أكثر مـن قومك فلما رأت قضاعة ما يـدعو إليه ابن حريث أحبوا جمع كلمـة اليمن كلها فأجابوا ابن حريث وقـدموه فأصفقت يمن الأندلس حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها ، وامتازت مضر وربيعة إلى يوسف وربيعة بالأندلس

---

(١) من أمراء العرب فى الأندلس ، كان مطاعاً فى قومه ، شجاعا شريفا عاقلا .
مات سنة ١٢٩ هـ/ ٧٤٦ م .
ويقال أيضا ثوابة بن سلامة الجذامى ، كـان من جند فلسطين ، طلب إليه عرب الأندلس أن يتولى أمرهم عندما انحرف أبو الخطار الحسـام بن ضرر الكلبى ومال إلى اليمن ، وقد تولى ثوابة من رجب ١٢٧ هـ/ أبريل ٧٤٥ م .
انظر : ابن عذارى ٢ / ٣٥ .

قليل فلحق خيار اليمن بابن حريث من كل جند وتجرع أهل البلد بتجرع أهل الشام ولحق خيار مضر بيوسف والصميل لا يعرض أحـد لأحد يخرج الجوار فيودِّع بعضهم بعضا حتى يلحق كل رجل بقومه وهى أول حرب كانت فى الإسلام بهذه الدعوة .

لم تكن حـرب قبل هـذه الـوقيعـة وهى الفتنـة العظمى التى بها يخاف بـوار الإسـلام بالأنـدلس إلا أن يحفظه اللـه قال : فزحف بن حـريث وأبو الخطـار إلى يوسف والصميل بقرطبة فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة بقبليها بقرية شقندة[1] وعبر يوسف والصميل النهر إليهما بمن معهما فـالتقـوا حين صلوا الصبـح فتطاعنـوا على الخيل حتى تقصفت الـرمـاح وثبتت الخيل وحميت الشمس ثم تداعوا إلى البراز فتنازلـوا وتضاربوا بالسيف حتى تقطعت ثم تقابضوا بالأيدى .

والشعور لم يكن فى الإسلام صبراً مثله إلا ما يذكر من صفِّين ، ولم يكن القوم بكثير لا هؤلاء ولا هؤلاء و إنما كانوا خيار من الفريقين وكـانوا متقاربين إلا أن اليمن كانوا أكثر قليلا فلما أعيـا بعضهم بعضـا تـواقفـوا يضرب بعضهم وجـوه بعض بـالقسى والجعـاب ويحثى بعضهم التراب على بعض إذ قال الصميل ليوسف : مـا وقفنا إذ خلَّفنا جند نحن منهم فى غفلة قال : ومن هم ، قـال : أهل السوق بقرطبة فـرد إليهم يوسف مولاة خالـد بن يزيد وصاحـب . . . [2] فأخرجا منهـم نحوا من أربعمائة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق فخرج الجزارون بسكاكينهم فجاءوا إلى قـوم موتى وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لا صلاة خوفٍ ولا أمنٍ فجردوهم وقتلوا وأسروا بشرًا كثيرًا خيارا وأسروا أبا الخطـار وابن حريث وكانـا الأميرين وكان ابن حـريث لما رأى أهل سوق قرطبـة يقتلون أصحـابه تغيب ودخل تحت سريـر الرحـا التى بمـوضع بيع الخشب فلما أسروا أبا الخطـار وهمُّوا بقتله قال : ليس علىّ فوت ولكن عندكم ابن السـوداء ابن حريث فدل عليه فأخرج

---

(١) انظر : الحلة السيراء ٢ / ٣٤٥ .
(٢) بياض فى الأصل (والصواب صاحب البريد) .

وقتلا جميعا وكان ابن حريث يقول : لـو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها فلما استخرج قال له أبو الخطار : ياابن السوداء هل بقى فى قدحك شىء لم تشربه فقتلا وأسر منهم بشر كثير ، ثم أتى بالأسرى وقعـد لهم الصميل فى كنيسة كـانت داخل مدينة قـرطبة وهى اليـوم موضع مسجـدها الجامع فضرب أوسـاط سبعين منها فلما رأى ذلك قـاسم بن فلان أبو عطا بن حمد[1] المرى قام إليـه فقال له : أبا جـوشن اغمد سيفك وراجع سيفك قال له : اقعد أبا عطاء فهذا عـزك وعز قومك فجلس ولم يغمد السيف ، ثم قام إليه فقال له : يا عرابى إن تقتلنا إلا بعداوة صفين لتكفن أو لأدعون بدعوة شامية فأغمد سيفه وأمن الناس على يدى أبى عطاء بعد بلاء عظيم فيقال والله أعلم إن تلك الوقيعة توجد فى بعض العلم أنها قاطعة الأرحام وكانت قبل سنة إحدى وثلاثين ومائة قال : فأعقبهم الله بالجوع والقحط فجاعت الأندلس سنة اثنين ثم . . . [2] سنة ثلاث عام سعيد فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علـج يقال له بـلاى قد ذكـرناه فى أول كتـابنا فخـرج من الصخرة وغلب على كورة واستورس ثم غـزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل استورقة زمـانا طويلا حتى كـانت فتنة أبى الخطـار وثوابـة فلما كان فى سنـة ثلاث وثـلاثين هزمهم وأخـرج عن جليقية كلهـا ، وتنصر كل مذبذب فى دينـه وضعف عن الخراج وقُتل من قتل وصار فلُّهم إلى خلف الجبل إلى استـورقة حتى استحكم الجوع فأخـرجوا أيضـا المسلمين عن استورقـة وغيرها وانضـم الناس إلى مـا وراء الدرب الآخر و إلى قـورية ومـاردة فى سنة سـت وثلاثين واشتد الجوع فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين وكانت إجازتهم من وادى بكـورة شذونة ويقال لها وادى بـرباط فتلك السنون تسمى سنى بـرباط فخف سكـان الأندلس ، وكـاد أن يغلب عليهم العـدو إلا أن الجوع شملهم قال وكـان يوسف قد أخرج الصميل فوجَّهه إلى الثغر الأكبر إسـدادة بالأندلس كانوا أمثل حالا وكان الثغر لليمن فأراد أن يذلهم ، فبعثه إلى سرقسطة وافترص ضعف أهلها فأتى فى مائتى رجل من قريش ومن كان معه من غلمانه وحشمه .

---

(١) والصواب أبو عطاء بن أحمد .

(١) بياض فى الأصل (وربما تكون الكلمة) « بعد » .

ومواليه فنال بها ملكا وغنًى ، ووفد عليـه محاويج الناس فأعطاهم الأموال والرقيق ولم يأته صديق ولا عدو فحرمه فأزداد سؤدداً وأقام بها أعوام الشدائد التى تتابعت وكان بقرطبة فتى من بنى عبد الـدار قد شرف وسوّد يقال لـه عامر من ولـد أبى عدى أخى مصعب بن هاشم صـاحب لواء رسول الله « ﷺ » يوم بـدر وأحُد وإلى عامر تنسب مقبرة عـامر التى بغربى سور مدينة قرطبة وكـان يلى الصوائف قبل يوسف فشرف فحسده يوسف فلما تبدى له ذلك بعث إلى أبى جعفر فيما يحدث أن يبعث إليه بسجلـه على الأندلس وساءه ما صنع يوسف باليمن وما سفك من الدماء وابتنى حظرا فى منيـة له كان يقال لها قناة عامر بغربى قرطبة فأغلق غلقة عظيمة همَّ أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنيانا ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يـأتيه إمداد اليمن وضعف سلطـان يوسف حتى كـان لا يركب معـه خمسون رجلا من حشمه وضعف الناس عليه بالأندلس ، وأراد أن يتقبض على عامر فوجده حذرًا قد أعلم بما يراد به ، وكان يوسف جبانا فلم يرد أن ينازعه حتى يحضره الصميل فكتب إلى الصميل يعلمه بما تبدل من أمـر عامر فأجابـه يشجعه على قتله وكان عـامر لا يخفى عليه شىء من سير يوسف وكان سخيـا لبيبًا عاقلاً أديبًا فأتاه آت فقـال له : انظر لنفسك فقد أتاه كتاب الصميل يشجعه على قتلك فخرج هـاربا من قرطبة إلى سرقسطة حيث الصميل ولم ير لنفسه أمنع منها لكثرة اليمن فيها ولم يثق بأهل كور الأجناد لضعفهم وما بقى عليهم من وقعة شقنـدة وكان بسرقسطة رجل من بنى زهـرة من كلاب قد شرف فكتب إليه عـامر ومتَّ بقرابـة ولد قصى من بنى زهرة فأجابـه فسار عامر حتى ورد بعض نـواحى سرقسطة فاجتمع هـو والزهرى فدعـوا الناس إلى سجل أبى جعفر فأجابهم رجـال من اليمن وناس من البربـر وغيرهـم فبلغ الصميل شأنهم فبعث إليهم خيـلاً ورجـالاً من أهل الطـاعـة فهزموهم واجتمع لهما ملأٌ من الناس فأقبلا حتى حصرا الصميل مدينة سرقسطة فكتب إلى يوسف يسأله إمداده فلم يجد فى الناس منهضا وذلك فى سنة ست وثلاثين .

فلما أبطأ عنه يـوسف وخاف أن يستنزل كتب إلى قومـه قيس فى جند قنسرين ودمشق يعظم عليهم حقـه ويسألهم إمداده ويعلمهم أنـه يجتزىء من المدد بقليل فقـام فى ذلك

عبيد الله بن على الكلابى وجماعة كلاب ومحارب وسليم ونصر وهوازن كلها إلا بنى كعب بن عامر وعقيل وقشير والحريس فإنهم كانوا منافسين لبنى كلاب لأن الرياسة بالأندلس كانت فيهم ، كان بلج قشيريا فعمهم الصميل وصارت الرياسة فى كلاب بن عامر وسيد بنى كعب بن عامر بدمشق سليمان بن شهاب وبقنسرين الحصين بن الدجن العقيلى ، وكانت غطفان تقدم رِجلا وتؤخر أخرى ولم يكن لهم رأس يجمعهم كان قد هلك رأسهم أبو عطاء فلما نهض عبيد بن على ودعا فى الجند إلى نصر الصميل تقاعس ابن شهاب وابن الداجن واتَّفقت بنو عامر كلها على الخروج إليه كلاب ونمير وسعد وجميع قبائل هوازن وسليم بن منصور وتابعهم بعد غطفان بن سعد فلما رأى ذلك سليمان والحصين علما أن قعودهما عنه ليس بضائره فخفًا وخرجا ومن خرج معهما من قومهما فخرجت قيس كلها من الجندين والجندان متجاوران بالأندلس وخرجا على صفقة من الناس فلم تجتمع لهم إلا ثلاثمائة فارس وبضع وستون فارسا فاستقلوا أنفسهم ، ثم قالوا ليس مثلك يترك وإن هلكنا وخف معهم بنو أمية وهم أكثر يومئذ بدمشق فخرج إليهم فى هذا العدد ثلاثون فارس من بنى أمية فيهم من رؤسائهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وكانا يتواليان لواء بنى أمية يتعاقبان ذلك ويوسف بن بخت ، وكانوا قد حضروا شقندة مع يوسف والصميل بخيار بنى أمية يومئذ بلاء عظيم معروف وصبر محمود فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ومن الصميل وجميع قيس ومضر فخرجوا مع قيس فيمن قوى من بنى أمية .

ورجع ها هنا شيء من حديث عبد الرحمن بن معاوية وله اجتلبنا حصر الصميل لينتظم الحديث قال : وكان عبد الرحمن بن معاوية لما وقع عند نفزة بسبرة أقام فيها أمنا فكتب إلى مواليه بالأندلس كتابا يشكوا فيه ما ابتلوا به ، ويعظم عليهم حقه ونزوعه إليهم وما صنع به ابن حبيب وبقومه بإفريقية ويعلمهم أنه إن دخل إلى يوسف لم يأمنه ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم ، وأن يمنعوه وإن تهيأ لهم ما فيه طلب سلطان الأندلس أن يعلموه وبعث بكتابه بدار مولاه فلما جاءهم بدر بكتابه واجتمعوا وتشاوروا وبعثوا إلى يوسف بن بخيت وكان من رجالهم وأنجادهم ، وكان فى جند قنسرين فاجتمع رأيهم على

أن لا يردوا إليه جوابا حتى يشاوروا الصميل فى ذلك ويدعوه إليه وكانوا واثقين به إن لم يجبهم ألا يرفع عليهم شيئا فكان هذا مما أخرجهم إلى إمداد الصميل مهما أرادوا من اعتقاد اليد عنده وعند قيس .

ثم رجع الحديث إلى خروجهم قال : فخرجوا وهم ثلاثة مائة فارس وبضع وستون فارسا وابن شهاب معهم والحصين بن الدجن فرأسوا على أنفسهم ابن شهاب استئلافا له فعل ذلك عبيد بن على وهو يومئذ سيد بنى كلاب عدا الصميل فساروا حتى أتوا وادى أنه وبه عقدة بن بكر بن وائل وبنى على فاستعانوهم فخرج معهم أربعمائة أو يزيدون فلما بلغوا طليطلة بلغهم أن الحصار قد أضر بالصميل ، وخافوا أن يلقى بيده إذا يئس من المدد فيهلك فعجلوا إليه رسولا من قِبَلهم وقالوا : ادخل فى جملة خيول عامر والزهرى التى تقابل السور فارم هذه الحجارة وبعثوا معه حجارة وكتبوا فيها بيتى شعر هما :

تبشرْ بالسلامة ياجِدار ... أتاك الغوث وانقطع الحصار

أتتك بناتُ أعوج ملجمات ... عِليها الأكرمون . وهم نِزار

فسار الرسول حتى فعل فلما واقعت الحجارة المدينة التى بها صميل أو بعضها فأمر من يقرأ ما فيها وكان لا يقرأ فلما سمع ما فيها قال : أبشروا قومى ورب الكعبة فتمسك بالحصن وقوى ومضى القوم وفيهم الأمويون أبو عثمان وعبد الله بن خالد وابن بخيت وغيرهم ومعهم بدر رسول ابن معاوية قد حملوه وساروا به ، وكان ابن معاوية قد كتب إليهم وبعث قرطاسا وخاتمه بأن يكتبوا عنه إلى جميع من رجوا نصره فكتبوا إلى الصميل يذكرونه أيادى بنى أمية قال : ومضوا حتى أتوا سرقسطة فانكشف عامر والزهرى لما سمعوا بالمدد قد قاربهم قال : وخرج الصميل فتلقاهم بالرحب وأعطاهم العطاء الجزيل أعطى خيارهم خمسين دينارا وأعطى خيار القواد مائتى مائتى دينار، وأعطى غيرهم من الناس عشرة عشرة دنانير وشقة شقة خز ، ثم أقبلوا به وبماله وحشمه وخلوا عن الثغر فلما أقبلوا خلا به الأمويون الثلاثة فكلمه عبيد الله وأعطاه الكتاب وقال له : تقدم علىَّ

لا رضى ولا سخط إلا برأيك فإن ترض أمرًا رضيناه وإن تسخطه سخطناه فقال لهم : دعونى أروى وأنظر وأقبل قافلا وقد جمعوا بينه وبين بدر رسول ابن معاوية فأعطاه عشرة دنانير وشقة خز وأقبل حتى دخل قرطبة وانصرف الأمويون إلى منازلهم ومعهم بدر وأربع الناس وحملت الأرض واشتد يوسف على الخروج إلى الثغر وهذا كله فى سنة سبع وثلاثين قال : فخرج بالناس وبعث إلى أبى عثمان وعبد الله بن خالد فقدما عليه فقعد لأحدهما ثم قال له : أخرج لموالينا فقال له : ليس فى القوم نهضة ولا قوة على الخروج كل من كان فيه منهض قد نهض إلى أبى جوشن فتقطعوا ، وأهلكهم الله بالشتاء والسفر مع ما نال الناس من الجهد فأخرج إليهما ألف دينار وقال قوِّياهم بهذه فقلا له هم خمسمائة مدون وأين تبلغ هذه منهم قال علىَّ ذلك فلما خرجا رويا وقالا : مالنا لا نأخذهذا المال ثم نسير فنتقوى به على ما نريد فسارا وخرج يوسف فلم يعرج على شيء فلما بلغ جيان أتاه أبو عثمان وعبد الله وكانا حين ساراً بالمال فرقاه على بنى أمية فلم يصر لهم إلا عشرة ، عشرة درهم أو نحوها وأعطوها الناس تقوية لهم واستئلافاً ليس لغزو إلا لما يريدون فلما أتياه بجيان وهو نازل على مخاضة الفتح بنتظر تتامَّ إليه الناس إذ أقبلت إليه الأجناد وجماعة الناس فأعطا الأعطيات فلما علم أبو عثمان أنه لا يعرج ولا يقيم دخل عليه فقال له : يا عبيد الله أين موالينا فقال : أصلح الله الأمير مواليك ليسوا كغيرهم لا مقام لهم عنك وإنما سألونى أنظارهم حتى يبلغ الأمير طليطلة ثم يلحقونه بها لعلهم أن يتناولوا شيئا من جديد شعيرهم، وكانت سنة سبع وثلاثين سنة خلف وكان خروج يوسف فى عقب سنة سبع وثلاثين فى ذى القعدة فصدقه يوسف ولم يتهمه فقال له : ارجع إليهم وليكن منك عليهم ضاغط وتلك كانت حاجته ، وحضر رحيل يوسف فسار معه أبو عثمان مودعا فلما ودعه رجع ليودع الصميل ولم يتحرك من العسكر كان صاحب خمرٍ يُدمن عليها لا يكاد أن يبيت ليلة إلا سكران فألفاه راقداً فثبت له حتى تحرك وقد مضى الناس فلم يبق غيره وغير حشمه فلما خرج تقدم إليه أبو عثمان وعبد الله فقال لهما : ما نباكما وما رجعكما فأعلماه بالذى كان من أذن يوسف ليلحقاه ببنى أمية بطليطلة فاستحسن ذلك ثم ساروا حينا ثم

دنوا منه فقالا لـه : أخلنا نفسك فَنحّى أصحابه فقالا له : الذى كنـا نشاورك فيه من أمر ابن معاوية فإن الرسول لم يبرح فقال : أمـا أنى ما أغفلت ذلك ولقد رويت فيه واستخرت الله وكتمت الأمر فما شاورت فيه قريبـا ولا بعيداً وفاء بما جعلته لكما من ستره ، وقد رأيت أنه حقيق بنصرى حقيق بالأمـر فاكتبا إليه . . .(١) على بركة اللـه فإن هذا الأصلع على أن يتخلى لى من هذا الأمر وأزوجه أم موسى يريد ابنته وكانت قد أرملت تلك الأيام من زوجها قطن بن عبد الملك على أن يكون واحدا منا فإن فعل قبلنا منـه وعرفنا حقه ومنَّته ويده وإن كره هان علينا أن نقرع صلعته بسيوفنا فقبَّلا يـديه وشكراه قال : فكان أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان يحدث قال : سرنا عنـه ساعة نحوا ميل منصرفين فرحين لا نـرى إلا أن الأمر قد تم لنا إذا نحن بصـائح خلفنا أبا عثمان فنظرنا فـإذا وصيف له على فرس فوقفنـا فقال لنا : يقول أبـو جوشن أقيما حتى أتيكما قـال : فأعظمنا إتيـانه بنفسـه لنكون نحن أولى بإتيـانه ووالله ما نأمنـه ثم توكلنا على الله فسرنـا فإذا هو قد أقبل على الكوكب بغلـه الأبيض وهو يجنح به فلما رأيناه وحده آمنا وعلمنا أنه لو أراد مكروها رد معه أعوانًا فنادانا فدنونا منه فقال لنا : إنى منذ أتيتمونى برسول ابن معاويـة وكتابه لم أزل فى إدارة فاستحسنت ما دعوتما إليه ، ثم كان منى إليكما ما كان فلما فارقتكما رويت فيه فوجدته من قوم لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة غـرقنا نحن وأنتم فى بوله وهـذا رجل قد حكمنا عليه مع مـا له فى أعناقنا واللـه لو بلغتما بيوتكما ثم رأيتما هـذا لظننت ألا أقصر حتى أرجع إليكما لئلاً أغـركما وأنا أعلمكما أن أول سيف يُسلُّ عليه فسيفى فبارك الله لكما فى رأيكما ومولاكما فقلت : أصلحك الله ما لنا رأى إلا رأيك فقال : لا تفعـلا فوالله مـا يسعكما إلا النظر له فإن أحب غير السلطـان فله عندى أن يـواسيه يـوسف ويزوجه ويحبـوه انطلقا راشـدين ثم انصرف عنا قـال : فانقطع رجاؤنا من مضر وربيعـه بأسرها ورجع رأينا إلى أطباء اليمن وإدخـالهم فى رأينا ففعلنا ذلك من فورنا لم نمـر بيمانى له بال وثقنا به إلا عرضنـا عليه أمر ابن معاوية ودعونـاه إليه فألفينا قوما قـد وغرت صدورهم يتمنون شيئا يجدون به سبيـلا إلى طلب ثأرهم ، ورغبـوا فى عقد

---

(١) بياض فى الأصل (وربما تكون الكلمة : لا) «بعد» .

بنى أمية بالأندلس ثم رجعنـا إلى جندنا وقد يئسنا من مضر فابتعنا مركبـا ووجهنا فيه إحد عشر رجلا منًّا مع بـدر فيهم رجال كنت أسميهم أنسيتهم منهم رجلٌ كان يقال لـه شاكر غلام هشام وتمام بن علقمة الثقفى وأعطينا تمَّامًا خمسمائة دينـاراً تكون معه عدة للنفقة عليه ولفديـة البربر وكـان ابن معاويـة فى مغيلة فى طـاعة ابـن قرة المغيلى[1] منتظراً لبـدر مولاه فمضى القوم فى المركب فلم ينشب ابن معـاوية وهو يصلى المغرب حتى نظـر إليه مقبلا فى اللج حتى أرسى وخرج رإيه بدر سابحا فبشره بما تم لـه بالأندلس وما خلف فيه أبا عثمان وعبد الله بن خـالد وغيرهما من رجال الأندلس من الاجتماع عليـه والرضى به وأخبره بخبر المركب وسمى لـه من فيه ومـا معهم من المال للنفقة عليـه ، ثم خرج إليه تمام بـن علقمة فقـــال له عبد الرحمن : ما اسمك قـال تمام قال : وما كنيتك قال : أبو غالب قال : تم أمرنـا وغلبنا عدونـا فاستحجبه لـذلك فلم يزل حـاجبا فى أيامـه حتى مات ، فلما أراد أن يدخل المركب أقبلت البربر فعرضت لهم ففرق عليهم تمَّام من المال الذى كان معه صلات على أقـدارهم حتى لم يبق أحـد فلما صاروا فى المركـب أقبل واحد منهم لم يكـن أخذ شيئـا فتعلق بحبل الهودج فحول شاكر يده إلى السيـف فضرب يد الرجل فقطعه وسقط فى البحر فقلدوا مركبهم ومضـوا حتى حلوا المنكب وذلك فى شهر ربيع الآخـر من سنة ثمان وثلاثين ومائة ، فأقبل إليه عبـد الله بن خالد وأبـو عثمان فنقلاه إلى قرية طـرش منزل أبى الحجاج فجـاءه أبو الحجـاج يوسف بن بخيت ، وجـاءتـه الأمويـة كلها وجـاءه جداد بن عمـرو المذحجى من أهل رية كان بعـد ذلك قاضيه فى العساكـر وجاءه عاصم بن مسلم الثقفى وأبو عبدة حسان فاستوزره وجاءه العبدى أبو بكر بن الطفيل واختلف الناس إليه .

قال ومضى يـوسف حتى أتى طليطلة فجعل يقول مـا أرى موالينا لحقوا بنـا فلما أكثر قال له الصميل : انطلـق ليس مثلك أقام على مثلهم أخاف فوت الفـرصة فسار حتى ورد سرقسطة فلما خاف أهلها معرة الجيوش أسلموا عامرا وابنه والزهرى فأخذهـم وكبَّلهـم وأراد

---

(١) انظر التفاصيل فى كتاب : دوذى عن تاريخ الأندلس .

قتلهم فاستشار فيهم خيار قيس فكلهم أشار بأن لا يفعل وأن يبلغهم ، وكان أشدهم قولا فى ذلك سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن فلما رأى اجتماع الجند على أن لا يقتلهم حبسهم ثم رأى أن يمضى طائفة إلى البشكنس ببنبلونة وكان أهلها قد نقضوا بنقض أهل جليقية فقطع بعثا عليهم ابن شهاب وأحب إقصاءه ، وجعل على خيله ومقدمته الحصين بن الدجن وبعثهم فى ضعف ولم يكره عطبهم فساروا فلما أمعنوا رجع قافلا فى قليل من الناس فسار حتى بلغ وادى شرنبة فأدركه الرسول بهزيمة ابن شهاب وقتله وقتل عامة الناس وأن فلُّهم مع الحصين بسرقسطة عند أبى زيد عبد الرحمن بن يوسف وكان يوسف قد خلفه على الثغر فسرَّه ذلك ثم دعا بعامر وابنه وهب وبالزهرى وقد قال له الصميل أما ابن شهاب فقد أراح الله منه فقدم هؤلاء فأضرب أعناقهم وذلك وقت الضحا وقد أقام ذلك اليوم ويوما قبله بوادى شرنبة فرحا مسروراً فأمر بهم فضربت أعناقهم فلما فرغ بهم وضع الطعام فأكل هو والصميل وقال له : قد قتل ابن شهاب وقتلت عامرا والزهرى هى والله لك ولولدك إلى الدجال من هذا ينازعك، ثم خرج عنه إلى ابنتيه ليقيل فاضطجع يوسف مفكراً فيما صنع ووضع رِجله اليمنى عن اليسرى وهو مستلقٍ مفكر قال المحدث : فوالله ما أنزل رجله اليمنى عن اليسرى حتى صاح أهل العسكر : رسول من قرطبة فقعد فقالوا : نعم والله فلان غلام له على بغلة أم عثمان أم ولده وصاحبة سلطانه وكانت البرد قد قطعها الجوع فلا بريد فلم يرعه إلا دخول الرسول عليه ومعه قطعة فيها ابن معاوية قد دخل ونزل بطرش[1] عند الفاسق عبيد الله بن عثمان وأصفقت معه بنو أمية وأن خليفتك على ألبيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه فهزم وضرب أصحابه ولم يقع قتل فما رأيك فدعا الصميل فأتاه مذعورا من بعثته فيه وقتاً لم يكن يبعث فيه فى مثله وقد بلغه قدوم الرسول إلا إنه لا يعلم ما جاء به فقال : أصلح الله الأمير ما أقلقك فى هذا الوقت ألا حدث قال نعم والله جليل وإنى أخاف أن يكون الله قد أنزل

(١) قيل بطروش له ذكر عند الحميرى فى كتابه الروض المعطار .

النقمة علينا بقتل هؤلاء فقـال له الصميل : ولا هذا كله لقد كانـوا أهون على الله ، فما هو قال : اقرأ عليه يا خالد كتاب أم عثمان فقال : خطب جليل والرأى أن نقطع إليه من فورنا هذا بمن معنـا من الناس فإما قتلنـاه وإما شردناه ، فهـرب فإن هرب لم يستقلها أبـدًا قال وذلك فكانوا على ذلك حتى شاع الخبر ولم يضبطوا سرهم فذاع الخبر فى الناس ، وقد قتل من قتل منهم مع ابن شهـاب وبقى فلُّهم بسرقسطة فتصايح النـاس غزوتـان فى غزوة فلما أمسوا تصـايحوا بمشاعرهم فلم يبق معهم مـن اليمن عشرة رجال إلا من كان لـه لواء فلم يقدر على تـركه ولم يسعهم ما صنع سواد قـومهم ، وبقى نفر من قيس خاصـة ومن قبائل مضر قليل قد ملوا السفـر قال : فأقبلوا يهونون عليه الأمر يشيرون عليه بـالمضى إلى قرطبة والصميل على رأيـه الأول حتى وقع المطـر وأقبل الشتـاء وحملت الأنهار فترك المسيرة إلى ابن معاوية ومضى إلى قـرطبة وقال: له قائل الرجل لم يظهـر طلب سلطانك وإنما جاء يطلب معاشا وأمنا فإن عرضت عليه المصاهرة وأن توسع عليه ألفيته مسرعا فوفَّد إليه وفدا فلما قدم قرطبـة وفد إليه وفدا فيـه عبيد بن على وخالد بن زيـد كاتبه ومولاه وعيسى بن عبـد الرحمن الأموى وكان يـومئذ على أرزاق الأجناد وحشم يوسف عارضـا وبعث معهم بكسًا وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار وكتب إليه يـذكر له اصطناع أبائه لجد يـوسف عقبة بن نافع ولأهله ويدعـوه إلى الصهر والتوسعة عليـه فسار الرسل حتى بلغوا أرش فى أدنـى كورة رية فقـال : إن عيسى بن عبد الـرحمن الملقب بتـارك الفرس قـال لهم بأى رأى يعيش يـوسف والصميل وأنتم أرأيتم أن بلغنا بهذه الهدية فكره ما جئنا به .

أليس أن أخذ ما معنا قوى به ووهن صاحبنـا فأبصر القوم عوار رأيهم فقالوا له : أقم بها معنا ونسير نحن فإن أعطانا بيعته ورضى بها جئنا بـه سرحنا إليك رسولنا لتقدم علينا بما معك وأن يكون غير ذلك فأرجعه إلى الأمير فهو أحق بماله فسـار عبيد وخالد وأقام عيسى بكل ما كان معه حتى قدم على ابن معاوية بطروش عند أبى عثمان وعنده بعض جماعة بنى أميـة ورجـال من اليمن يختلفـون إليـه ويتعقبـون المقـام عنـده منهم دمشقيـون وأردنيـون وقنسريون فاختطب عبيد وخـالد كل واحد حذو صاحبه ودعـواه إلى الألفة ، وأن يصاهره

يوسف ويحسن وفده ، ثم جلس فأخرج خالد كتابا فناوله إياه فأخذه ابن معاوية ثم دفعه إلى أبى عثمان فقال اقرأه وأجب فيه بما تعلم من رأينا وقد كانوا أرادوا وقالوا ما أحسن ما عرضتما وما جاء إلا طالبا لموريثه فلما أخذ أبو عثمان الكتاب قال له : خالد وكان لبيبًا أديبًا عاقلاً إلا أنه زل وكان هو مُملى الكتاب فإن له العجب والنفخ وقديما ما أهلك دين الرجال ودنياهم ياأبا عثمان لتعرقن إبطاك قبل أن تحبر .

فيه جوابا فرفع أبو عثمان فضرب بالكتاب وجه خالد وقال له : يا ماص بظر أمه لا تعرق لى فيه إبط ولا أحبِّر فيه جوابا ثم قال خذوه فأُخذ وكبِّل من ساعته وقالوا لعبد الرحمن هذا أول الفتح هذا سلطان يوسف كله قال لهم عبيد هو رسول ولا سبيل إليه فقالوا : أنت الرسول وهذا متعدٍّ قد بدأ بالشتيمة والانتقاص ابن الخبيثة العلج ثم سرحوا عبيداً وحبسوا خالدا وبلغهم خبر الأموال المخلفة بأرش فأقطعوا إليها خيلا ثلاثين فارسا فوجدوا الخبر قد سبق إلى عيسى فطار راجعا بكل ما معه فكان ابن معاوية بعد ذلك يقيم عيسى ويقول : أنت مولانا لا نشك فى قرب ولائك منا ففعلت وفعلت فيعتذر بالوفاء وكان ابن معاوية ذا بقية فى مواليه فوضع عنه ذلك الذنب إلا أن لم يبلغ به كما بلغ بمثله من مواليه ولما رجع عبيد إلى يوسف وقد صنع بخالد ما صنع هاص ذلك يوسف والصميل وجعل الصميل يثرب عليه فى خلافه رأيه إذ لم يمض إليه من حيث بلغه خبره ، وبرك الشتاء فلم يمكن واحدا من الفريقين تحرك حتى انقرض الشتاء فلما انقرض وقد كاتب ابن معاوية الأجناد كلها والبربر فأجابته اليمن بأسرها ولم يجبه من قيس إلا جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين بن الدجن هؤلاء الثلاثة فقط لما كان فى أنفسهم مما صنع يوسف والصميل بابن شهاب وتطويحهما به .

وكان الصميل قد ضرب العبدى وهلالا ومن ثقيف من أعداد بنى أمية ثلاثة أيضا تمام بن علقمة وعاصما العريان وأخاه عمران وأصفقت مضر كلها مع يوسف فبعث إليهم وعسكر بقرطبة فى شقندة يريد ألبيرة وقد انحاز أهلها من قيس وغيرها من مضر فعسكروا منتظرين ليوسف وانضمت اليمانية والأموية إلى ابن معاوية قال : فلما بلغ

عبد الرحمن بن معاوية تبريز[1] يوسف إليه قيل له ليس فيمن فى ألبيره من اليمن وبنى أمية ما نـدفع به عاديـة قيس وجماعة الناس مـع يوسف ولكن نرى أن نتحـرك إلى أجناد اليمن حمص وفلسطين والأردن فنأتيـه من خـلاف وجهه فخـرج حتى أتى أهل الأردن وهم إليـه أقرب فأجـابته اليمن وقضاعة كلهـا واستحبوا أن يأتى الأجناد الأخـر وخف معه من أهل الأردن من خيارهم ناس قليل فسار حتى أتى طرف شذونة حيث أهل فلسطين فتسرع إليه سرا القوم وحماة الجنـد وقد كـان من فى ذلك الجند من بنى كنـانة وهم مع الجنـد تحركوا مع كنانـة بن كنانة إلى يوسف فلم يعـرض ابن معاوية لأحد من أولاده ولا لأحـد ممن خلفوه ، ثم أقبل بهم حتى أتى جنـد أشبيليـة جند حمص فخـرج إليـه خيارهم مـن اليمن شاميهـا وبلديها ، وبلـغ يوسف خبره فرجـع إليه استقبله وأقبـل كل واحد منهما إلى صاحبـه بمن معهما وابن معاويـة لا لواء معه وخرجت الأجنـاد الثلاثة بألـويتهم فقال بعضهم لبعض : سبحان الله ما أشد خلاف أمرنا نحن بألوية وصاحبنا بلا لواء ، فأقبل أبو الصباح يحيى بن فلان اليحصبـى بقناة وعمامه والعمامـه والقناة لـرجل من حضرموت لا أسميـه ثم دعوا رجلا من الأنصار لا أسميه تفاءلوا باسمه ونسبه فعقد له بقرية قلنبيرة من إقليم طشانة من كورة أشبيلية فحدثنـى غير واحد من المشيخة أن أبا الفتح الصدفوري العـابد وكان الجهاد قد غلب عليه وكـان يرابط بثغر سرقسطة مـرة وبثغره الذى كان يسكنـه بقنبيرة مرة ، وكان صديقـا لفرقد العـالم بالحدثان وكـان يأتى الثغر فيرابط فيـه مع فرقد ثم يسير فـرقد فيرابط بقلنبيرة فكان أكثر دهـرهما مصطحبين ، فكان أبو الفتح يقول أقبل معى فرقـد حتى مررنا بمدينة قسطونـة بكورة جيان ، فقال : إنى أجد لهذه المدينة خبرا شنيعـا فأعدل معى إليها لأصف لك خبرها قال : فعدلت معه فوصف ما حدث فيها بين الأميرين ابن معاوية وابن الأسود بن يوسف فكـان كما قال بعد ذلك واجتلب لى دخول ابن معاوية وقـال : إذا مررنا بكورة أشبيلية أريتك المكان الذى يعقد فيه لـواءه فسرنا حتى أتينا القرية فقال لى وأشار إلى

[1] بكسر أوله وسكون ثانيـه وكسر الراء وياء ساكنة وزاى وهى مدينة عامـرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجص وفى وسطها عدة أنهار جارية من مدن أذربيجان .

شجـرتى زيتون يعقـد لـواءه بين هاتين ويحضره ملك من المليكـة مـوكل بنصر الألويـة فى أربعين ألف ملك لا يرى . . . [1]على عدو ألا تقـدمه النصر على أربعين يومـا فبلغ هذا الأمير عبـد الرحمن بن معـاوية فكـان كلما خلقت العمامة ستر فضـولها وعقد على العقـدة ومضى على ذلك هشـام والحكم وعبـد الـرحمن إلى غـزوات ماردة فلما أرادوا بـدل العمامـة وجدوا الأخلاق القديمة فحلها عبد الرحمن بن غانم والإسكندرانى فطرحاها وجددا عمامة وجهور غائب عنهم فلما أقبل أنكر ذلك وأعظمه ودعا إلى طلب الأخلاق وردها فلم توجد ولم يلتفت إليه أحد .

رجع الحديث ويوسف نـازل بمدور صدف ثم رحل يوسف ورحل ابن معـاوية فنزل طشانة[2] والنهـر بينهما وذلك فى أول ذى الحجة سنـة ثمان وثـلاثين ومائة فتنـاوشا والنهـر بينهما فكان مـاء النهر كثيرًا لا سبيل إليه ثم زاد حتى امتنع فأقـام عليه انتظارا لنقصـانه ثم رأى ابن معاوية أن يبدره إلى قـرطبة قيل له إن عامة من فيها مـواليك وهم كثير فأوقد نيرانه ليلا ثم رحل من جوف الليل ليسبقه وبينه وبين قرطبة خمسة وأربعون ميلا ، فلم يَسِرْ ميلا حتى أتى يوسف من يعلمه بما أراد من مخالفته إلى قرطبة فأصبحا كفرسىَ رهان والنهر بينهما فعلم ابن معاوية أنه قد أتى بما أراد فأمسك عن ذلك ثم نـزل فنزل يوسف بنزوله ثم لم يزالا يسيران حتى نزل يوسف فى المسارة ونزل ابن معاوية إلى بابش[3] وقد انكسر سفلة أصحابه ومن لا علم له بالأمر وكانوا رجوا دخول قرطبة والتوسع فى معاشها والانتصار بأهلها وكانوا فى ضيق من المعاش حتى ما كـانوا يتقوتون إلا بالفـول الأخضر وذلك فى أيار وأقبل يوسف إلى رفاهـة عيش فأقام هو وأصحـابه فيما شاءوا ولحق بابن معـاوية كل من قوتـه نفسه على ذلك من اليمن وبنى أمية من أهل قرطبـة ونقص النهر يوم الخميس لتسع ليال مضين من

---

(١) بياض فى الأصل .
(٢) له ذكر عند الحميرى .
(٣) له ذكر عند ياقوت الحموى .

ذى الحجة يـوم عرفة فقـال لهم : إنا لم نجىء للمقام وقد دعـانا هذا الـرجل إلى ما علمتم وعـرض مـا سمعتم ورأى لـرأيكم تبع فإن كـان عنـدكم صبر وجلـد وحب للمكـافحـة فأعلمونى ، وإن يكـون فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعلمـونى فأصفقت اليمن كلها بأسرها على الحرب ورأت ذلك بنو أمية فكتب كتـائبه وبعث على خيـــل أهـــل الشـــام عبـد الرحمن بـن نعيم الكلبى وعلى رجالـة اليمن بلـوهـة اللخمى من أهل فلسطين وعلى رجالـة بنى أمية ومـن جاءهم من البربـر عاصم العـريان ويـومئذ سمى العـريان تجرد فى سراويله فقاتل حتى فتح الله لهم فسمى العريان وعلى خيل بنى أمية حبيب بن عبد الملك القرشى وهـو من ولد عمـر بن الوليـد وجعله على جماعة الخيل وعلى خيـل من صحبه من البربر إبـراهيم بن شجرة الأودى ، ونـاول أبا عثمان اللـواء ونزل جماعـة بنى أمية فحفُّـوا به وتحته فـرس أشقر معـه القوس ثم عبروا النهـر يوم الخميس فلم يعرض يـوسف لشىء من إجازتهم ثم راسلهم عشيـة الخميس بالصلح حتى كـاد أن يتم وكأنه كـان ببنى أمية بعض الحرص على الصلح وأخـرج يـوسف الغنم والبقر فـذبحت وصنع الطعـام ليلهم جمعـا لا يشكون أن الصلح تام فأراد إطعام العسكرين ، ونظن أن أطماع ابن معاوية وأصحابه إياه بـالصلح لتفتيره عن العـرض له فى إجـــازة النهـــر فلما أصبـــحوا غـداة الجمعة يـوم الأضحى . . . (١) ما كانوا أرادوا من الصلح ثم تـزاحف القوم وعلى خيل يوسف من أهل الشـام ومضر كلها عبيـــد بن على وعلى الرجـالة كنـانة بن كنـانة الكنـــانى وجـوشن بن الصميل ، وأنزل يوسف على جماعة الرجالة عبد الله ابنه وبعث على خيل غلمانه وصنائعه من البربـر خالد سـودى غلامـه وكانت خيل يـوسف كثيرة مع خـالد من غلمانـه والبربر وأخلاط النـاس ، ومع عبيد بن على فى المسيرةخيل قيس فالتقـوا فاقتتلوا قتالاً شـديدًا فلما اشتد الأمـر نظرت اليمن إلى ابن معاويـة على فرس وقد نزل حـوله مواليـه ، فقال بعضهم لبعض غلام حـدث فما يؤمننا أن يطير على هـذا الفرس فنهلك فبلغه ذلك حتى لفظـوا به

(١) بياض فى الأصل .

فنادى أبا صباح فأقبل إليه فقال : ليس فى عسكرنا بغل أوفق من بغلك وإن هذا الفرس يقلق تحتى فلا أقدر على ما أريد من الرمى من قوسى فخذ فرسى وهات بغلك ، وإنى أحب أن تكون تحتى دابة تعرف أن حال الناس وكان بعلا أشهب قد ابيضَّ فاستحيا أبو صباح فقال أويثبت الأمير على فرسه فقال لا والله فأخذ البغل فاطمأنت اليمن وتراموا عن خيلهم وحملوا عليها إخفاء هم واشتد القتال فشد حبيب بخيله على خيل ميمنة يوسف والقلب فهزمها وطار خالد سودى ومن معه ، فلما رأى ذلك عبيد بن على تداعى إلى النزال هو وخالد ثم شد حبيب وابن نعيم بخيل أهل الشام على القلب فقتل كنانة بن كنانة وعبد الله بن يوسف وجوشن بن الصميل وطار يوسف الصميل وثبت عبيد فى مسيرة يوسف وجماعة قيس فاقتتلوا حتى ارتفعت الشمس ، ثم انهزموا فقُتلوا قتلا ذريعا وقتل عبيد بن على ووجوه قيس لم يبق منهم ممن حضر إلا من لا ذكر له وسار ابن معاوية حتى أتى القصر فلم يجد دونه أحدًا ، وأقبل عسكره فانتهب عسكر يوسف وأكلوا الطعام الذى كان أعده فأصابوا العسكر وفيه من كل شىء ، وكان ابن معاوية قد وكَّل بخالد بن زيد وهو محبوس رجلين من ضعفاء بنى أمية وأمرهما أن حال الناس أن يفرغا منه فكان خالد يقول ما أليت على الدعوة لنفسى قط إلا يومئذ كنت أقول اللهم أنصر يوسف ثم أقول فى نصره قتلى وفى نصر ابن معاوية هلكى ، فلم يزل محبوسا حتى اصطلحنا فلما دخل ابن معاوية القصر لم يجد دونه أحدًا ووجد سرعان الناس قد سبقوا إلى عيال يوسف فسلبوا وانتهبوا فلما جاء طرد الناس وكسى من عرى منهم ورد ما قدر على ردِّه فغضبت اليمانية وساءهم إذ حجر عياله مما كانوا أرادوه من فضيحتهم وقالوا عصب ، وكان ذلك لم يشتد على أهل العقول منهم وأضمروا أن قالوا قد أحسن وفى أنفسهم غير ذلك وقال بعضهم لبعض : ويحكم قد فرغنا من أعدائنا من مضر وهذا ومواليه منهم فضع بنا يدا عليهم فَصِيرَ لنا فتحان فى يوم واحد فكره كاره ورضى راضٍ واتفقت قضاعة على الكراهة وأتى ثعلبة بن عبد الله . . . [1] الجذامى وهو يومئذ من وجوه أهل فلسطين من جذام ، إلا أنه لم يكن

---

(١) إضافة من الحلة السيراء لابن الآبار ، وله ترجمة بسيطة فى كتاب مطمح الأنفس .
(١) هذا ما وجد من المخطوطة والمطبوع .

يومئذ من قوادهم كان فيهم رجال فوقه فانتصح ابن معاوية وأعلمه بما تشاور فيه القوم من قتله وقتل مواليه وزعم له أنه فيمن كره ذلك وأخبره بإباية قضاعة وقال له احترس وضم إليك مواليك وقال له أشد الناس كان قولا فى ذلك ودعا إليه أبو الصباح فهذا يد ثعلبة التى بها شرفه عبد الرحمن فولى شرطته يومئذ عبد الرحمن بن نعيم وضم مواليه فجعلهم أحراسه ، وانضم إليه بنو أمية بقرطبة وكان بها منهم بيوتات لها وفر وثروة من البربر وغيرهم ، وقد كان يوسف حين أقبل إليه ابن معاوية كتب إلى ابنه عبد الرحمن يأمره أن يأتيه بخيل الثغر فى خمسمائة فقضى أنه لقيه يوم الهزيمة من قرطبة على بريد ويوسف يريد طليطلة ، وسار الصميل حتى أتى منزله فى جنده وسار يوسف حتى أتى طليطلة فحشد من أهلها من خف له منهم ، وكان عامله عليها حينئذ هشام بن عروة الفهرى فأقبل بمن معه وجلس عروة على حاله حتى مر الصميل فحشد من خف معهما من بقايا مضر وقد ولى ابن معاوية ذلك الجند والكورة الحصين بن الدجن وولى كورة دمشق جابر بن العلا بن شهاب فلما أقبل يوسف والصميل إلى جيان تحصن فى مدينة منتيشة ولم يتعرضاه إلا أنهما حشدا من يعينهما حتى أتيا ألبيرة فلما بلغ جابرا قدومهما هرب على ألبيرة وانحاز إلى بعض جبالها فاجتمع أهل ألبيرة من قيس ليوسف وبلغ ابن معاوية نزوله بألبيرة فحشد الأجناد ثم تحرك إليه وخلف على قرطبة أبا عثمان فى ناس من يمن قرطبة وبنى أميتها .

وقد كان ابن معاوية أُهديت له جاريتان واشترى ثالثة وشيئا من خدم قد كان اتخذ عيالا فلما بلغ يوسف وهو بجيان قبل دخوله ألبيرة تحرك ابن معاوية إليه أمر ابنه عبد الرحمن أن يخالفه إلى قرطبة وسار ابن معاوية يريد يوسف بألبيرة وخالفه أبو زيد فأغار على قرطبة ، وحُصر أبو عثمان فى صومعة المسجد الجامع التى فى القصر فاستنزله بعهد إلا يقاتله فكبله وانطلق به فأصاب جاريتى ابن معاوية وهربت الثالثة ، وكان قد اشتراها من أهل بيت من العرب فلما حضر الأمر أكفوها وساروا بها وهى حامل بجارية سميت عائشة، وسار أبو زيد بأبى عثمان والجاريتين فقال له أهل العقول من أصحابه صنعت ما لم تسبق إليه ظفر بإخواتك وأمهاتك فستر عورتهن وكسا عريهن وظفرت بخادمين

فاخـذتهما فتبدا له سـوء رأيه فأمر بخباء فضرب فى قلعـة تدمين بجوفى قـرطبة على ميل من المدينة ، ثم أنـزل فيه الجاريتين وما كـان معه من متاعهـن ومضى بأبى عثمان مكبلا حتى أتى أبـاه بألبيرة وسار ابن معـاوية لم يعرج على شىء حتـى بلغ ألبيرة إلى قرية مـن فحصها يقـال لها أرملة فتراسـلا ، ودعـاه يـوسف والصميل إلى أن يسلما له الأمـر على أن يأمنـا فى أمـوالهما ومنازلهما وأن يـؤمن الناس كلهم وتهدى أمـور الـرعية فأجـابهما واصطلحا فى سنـة أربعين وكتب بينهما كتاب صلح ، وأقبل ابن معاوية والصميل ويوسف وسرح بن معاوية خالد بـن زيد وسرح يوسف أبا عثمان واشترط ابن معـاوية على يوسف أن يرتهنـه ابنه عبد الـرحمن أبا زيـد ومحمد أبـا الأسود فقبضهما على ألا يحبسهما إلا حبسًـا جميلاً معـه فى قصر قرطبة حتى تهدى الأمـور فإذا صلحت ردهما فكان ابن معاوية إذا ذكـر الصميل يقول لله بلاده لقد صحبنى من ألبيرة إلى قرطبة مـا مست ركبته ركبتى ولا تقدم رأس بغله رأس بغلى ،ولا استفهمنى فى حـديث ولا افتتح حديثـا بغير أن يسأله عنـه ولا يذكـر مثل ذلك عن يـوسف وذلك أنهما لما اصطلحا أقبل يـوسف عن يمينـه والصميل عن يساره حتى دخلـوا قرطبة فنـزل القصر ونزل يوسف بمنزلـه بلاط الحر وكان قبله للحـر بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس فيقال إن يوسف تجنى على ابن الحر فقتله وأخذ المنزل ويقال بل اشتراه والله أعلم .

فلما دخلوا قام الناس على يوسف ورجوا أن يضيق لهم عليـه ابن معاوية فادعوا رباعه وأمواله وسألوا أن يرده وإياهـم إلى القاضى وهو يومئذ يزيد بن يحيى وكان أهل الدعوات قد رجـوا أن يحيف لهم القـاضى لما كان فى نفســه على يـوسف والصميل من قتلهما اليمن يـوم شقندة ، وكان يزيد بن يحيى مستقضى من الشرق ومعه سجل فلم يعرض له يوسف لرضا أهل الأنــدلس به فضم إليـه يوســف والصميل [وأهل][1] الدعويـات فلم يصنعوا شيئا وعجـزهم لهما قيل إنه عجز بعضهم فى عشرة أيـام فلم يزد أهل القوة على ثلاثـه آجال

---

(١) إضافة من المطبوع .

ثلاثة ثلاثة أيام ثم عجزهم فأقام يوسف والصميل على أحسن حال يختلفان إلى ابن معاوية ويحضرهما الرأى مرةً بعد مرة قال : ودخل فى تلك السنة عبد الملك بن عمر بن مروان ويقال له المروانى ودخل جُزى بن عبد العزيز بن مروان معهما أولادهما وبناتهما ، وتتابع ناس من بنى أمية ومواليهم وكثروا وكانت بقرطبة بيوتات من موالى بنى هاشم وبنى فهر وقبائل قريش وغيرهم كانوا قد نالوا مع يوسف رفعة ومنازل فانقطع ذلك عنهم فكانوا يختلفون إلى يوسف ويلقون عليه التحريف ويندمونه على ما كان فلم يزالوا حتى كاتب الناس ، فأما أهل الأجناد فقالوا : لا والله ما نرجع إلى الحرب بعد السلم وكره الصميل وقيس ذلك وقالوا : حسبنا قد قضينا الذمام ولا والله نخلعه فلما يئس منهم كاتب أهل البلد وأهل ماردة ولقنت فأجابوه وبها جل عيال يوسف كانوا نفروا إليها وإلى طليطلة يوم المسارة فلما صالح عبد الرحمن رد بعضهم وترك بعض بناته مع أزواجهن ومن استثقله من عياله معهن فأتته كتبهن يدعونه إلى أنفسهم فهرب سنة إحدى وأربعين حتى نزل ماردة فلما علم ابن معاوية بهربه أتبعه الخيل فغاب وأخذ ابنيه فقتلهما ، وأخذ الصميل فاحتج أنه لا ذنب له ولو أنه أذنب هرب معه فقال له لم يهرب حتى استطلع رأيك وقد كان لنا عليك النصح فحبسه ، ومضى يوسف إلى ماردة فحشد أهلها عربها وبربرها ثم أقبل إلى لقنت فخلفه أهلها ثم أقبل إلى أشبيلية وعليها عبد الملك بن عمر المروانى فاجتمع إليه ناس من حمص وغيرهم وانحاز أهل البلد بأسرهم إلا قليلا إلى يوسف انتفخ عسكره وصار فى عشرين ألفا أو أكثر فزحف إلى المروانى بإشبيلية .

وقد عسكر ابن معاوية بقرطبة ينتظر الأجناد حتى توافوا قال فلما توافت جموع يوسف زحف إلى المروانى وهو فى نفر من أهل الشام قد اعتصم بمدينة أشبيلية ورأى قلة من معه فأمن شرهم وشوكتهم فرجع مبادرًا للقاء ابن معاوية بمن اجتمع له من أهل ماردة عربها وبربرها وأهل لقنت ومن تأبش إليه من أهل أشبيلية ، وقد عظم عسكره وانتفخ قال : وتتامَّت لابن معاوية حشوده وأقبلت إليه الأجناد فتحرك بمن معه حتى نزل بمحلة يقال لها برج أسامة ، وأقبل يوسف إلى ابن معاوية لا يعبأ بمن خلفه والمروانى بأشبيلية منتظرا

لولده حتى قدم عليه ابنه عبد الله وكان واليا على موروور فحشدها وهو يرى أن أباه محصور فأتاه وقد انكشف عنـه الحصر فأخبره الخبر وما كان من نزوله وانقشاعـه عنه ، ثم نادى فى الناس فقال لهم روساؤهم أمرنا لأمـر أبيك تبع فتحركا متى شئتما فخرج المروانى ومعه ولده عبد الله فيمن كـان معه من أهل أشبيلية وموروور وبلغ ابن معاويـة الخبر وما كان من تجرد يوسف عن المروانـى وإقباله إليـه فتحرك ابن معـاوية حتى نـزل المدور ، وبلغ يوسف إلى وادى كذا فقيل لـه هذا المروانى قد نهد إليك وركـب ساقتك فصرف إليه رايـاته واستعجل مكافحته خـوفا من أن يأتى ابن معاوية من وجهٍ والمروانى من آخـر وتقاعس المروانى رجاء لذلك فلم يمكنه يوسف من التقاعس والتقيـا من ساعتهما فحين التقيا نزل رجل من موالى فهر من البربر من ساكنى ماردة أو لقنت نجُد معـروف بالنجدة فدعا إلى النزال والبراز فلم يبرز إليه أحد فألتفت المروانى إلى عبد الله فقال هذا أول الشر ونحن فى قلة فأنزل على عون اللـه فنهض عبـد الله إلى النـزال ومعـه المولى لـه لآل مـروان بن الحكم حبشى يكنى بأبى البصرى فقال لـه : أى شىء تريد يا مـولاى فقال له : أريـد النزول إلى هذا قال لـه : أنا أكفيك ذلك يـامولاى قـال فنزل أبـو البصرى إلى البربرى وكـانت السماء قد رشت بـرذاذ فـالتقيا فتجـاولا سـاعة وكـلاهما جسيم شجـاع فقُضى أن البربرى زلقت رِجـلاه فسقط وتحامل عليه أبو البصرى فقطع رِجليه بالسيف ثم كبَّر القوم وحملوا حملة رجل واحد فانهزم يوسف من ساعته وتفرق من معـه ، وقُتل قليل ممن كان معه ، وكان أصحاب المروانى أقل من أن يتَّبعوا هزيمـة فكان حماداهم أن خلا لهم عن عسكره فانتهبوا وقتلـوا من أدركوا فبينا ابن معاويـة نازلا فى المدور أتاه عبد اللـه بن المروانى بهزيمة يوسف وبـرءوس من قُتل معه فحمد الله ، وأعجل رسـولاً إلى بدر فأمره بإصلاح النزل للمـروانى وأن يضعف له مثلى ما كان أنزل عليه وأعلم عبدُ الله بنَ معاوية بجميع أمرهم وما أظفرهم الله به ومكن لهم فيه ، ولم يزل المروانى وولـده فى عليا إلى اليوم ومضى يوسف إلى فُـرَيش ثم إلى فحص البلوط ثم واقع محجَّة طليطلة يريد ابن عروة ليأمن عنده ، وهو إلى طليطلة على عشرة أميال فمرَّ بعبد الله بن عمـر الأنصارى وهـو بقريـة من قرى طليطلـة فقيل له هـذا يوسف منهـزما فقـال

لأصحابه ويحكم اخرج بنـا نقتله ونريح الدنيا منه ونريحه من الـدنيا ونريح الناس من شره فقد صار رجلاً ناجشًا للحرب ، فخرج حتى لحقه وليس بينه وبين مدينة طليطلة إلا أربعة أميال وليس معـه إلا سابق الفـارسى مولى لبنى تميم ومن يجهله يقـول مولى يـوسف وبقيته بسرقسطة ووصيف واحـد فقط وقد ماتـوا من شدة الركض ، وليس معهم منعـة ولا مدفع فقتل عبد اللـه يوسف الفهرى وقُتل سابق وهـرب الغلام حتى دخـــل طليطلـــة ثم أقبل عبد الله بن عمر بـرأس يوسف فلما بلغ ابن معاوية إقبال عبد اللـه بن عمر برأس يوسف أمر بضرب عنق عبد الرحمن بن يوسف المكنى بأبى زيـد وكان عليه حردا لما صنع بعياله ثم أخرج رأسه إلى رأس أبيه فلقى رأس أبيه برأسه واستصغر أبا الأسود فحبسه ، ثم قضى الله أن هرب من الحبس فأثـار عليه بعد ذلك إلى سبـع وعشرين سنة حرب فسطلـونة وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله .

وكـان ابن معاويـة لما صنع أبو زيـد بعيـاله مـاصنع وترك الجاريتين كـرههما فأعطى إحداهما مـولاه عبد الحميد بن غانم وهى أم عبـد الرحمن بن عبد الحميد بن غـانم واسمها كلثم وأعطى الأخرى لغيره ولم يرجعهما فهذا تـوقيع من حديثهم على وجه النسق ، وكانت الأمـور أكثر من أن تستـوعب ثم أدخل على الصميل فى الحبس بعـد قتل عبد الـرحمن بن يـوسف فخُنِق فأصبح فى الحبس ميتـا وأخـرج إلى داره ودفنـه أهله وانقضى أمـره ، وأمـر يوسف وابنـه عبد الـرحمن وبقى محمد هـاربا فى الأرض، ثم ثـار بعد قتل يـوسف إلى سنة وأربعة أشهر رزق بن النعمان الغسانى على الأمير عبـد الرحمن بن معاوية[1] ، ثم ثار بعد قتل رزق إلى سنـة هشام بن عـروة الفهـرى بطليطلة وكـان معـه حيـوة بن الوليـد التجيبى والعمـرى من ولد عمـر بن الخطاب رحمه اللـه فخـرج إليه الأمير عبـد الرحمن إلى طليطلـة فحاصره فيهـا فلما عضته الحرب ، ونالـه الحصار دعا إلى الصلح وأعطى ولـده رهنة ورجع عنه الأمير فلما انصرف عنـه خلع أيضـا وعاد إلى نفـاقة فغـزاه الأمير السنة الثـانية فنـزل به

---

(١) له ذكر فى الحلة السيراء ١/ ٢٥ .

وحاربه ودعاه إلى الرجوع فصبر فلما يئس منه أمر بابنه الرهينة فضربت عنقه ثم جعل الرأس فى المنجنيق ورمى به إليه فسقط فى المدينة ورجع عنه ذلك العام ، فلما حال الحال ثار عليه العلاء بن مغيث اليحصبى ويقال حضرمى بباجة وسوّد ودعا إلى طاعةأبى جعفر، وكان قد بعث إليه بلواء أسود فى سن قناة قد أدخله فى أهليجة وطبع عليه فأخرجه العلاء فجعله فى رمح وقام به فى جند مضر وساعده على غيه واسط بن مغيث الطاى وأمية بن قطن الفهرى فأقبلت اليمانية حتى صاروا بأشبيلية فاتهموا أمية بن قطن فأخذوه وكبلوه وخرج الأمير إليهم واجتمعت إليه الحشود وأقبل حتى نزل بقرية القوم بقلعة رعواق وأقبل غياث بن علقمة اللخمى من شذونة ممدًّا لهم فلما سمع بخبره الأمير بعث إليه بدراً مولاه فى قطيع من عسكره فقطع به فنزل فى الولجة التى بين وادى إبرة والنهر الأعظم ونازله بدر فتراسلا حتى انعقد بينهما صلح ، ورجع غياث بن علقمة اللخمى إلى بلده ورجع بدر إلى الأمير فلما بلغ القوم الخبر قالوا: ليس لنا إلا مدينة قرمونة فعبوا على الخروج إليها ليلاً ، وجاء الخبر إلى الأمير فبعث بدرا وقال له : ابتدر إلى المدينة وارفع رأس قبتك على باب قرمونة واجمع إليك أهل الطاعة إلى أن نوافيك غدوة ، وركب الأمير من شحر طويل فأصبح على ظهر وتباطأ القوم فأصبح القوم فى الشعراء تحت قرمونة فلما نظر إلى القبة مضروبة على باب المدينة علموا أنهم قد بدروا إليها فماجوا وتطلعت عليهم خيل العسكر فانهزموا وقتلوا قتالا ذريعا وأصيب أمية بن قطن مكبلا فمنَّ عليه الأمير وأطلقه وقطف من رءوسهم سبعة آلاف رأس فميز رءوس المعروفين ورأس العلاء ومثله ، ثم كتب باسم كل واحد بطاقة ثم علقت من أذنه ثم أجزل العطية لمن انتدب لحمل تلك الرءوس إلى إفريقية فجمعها فى أخرجة ، وركب فيها البحر حتى انتهى إلى القيروان فطرحها ليلا فى السوق فلما أصبح الناس وجدوها ووجدوا كتابا مكتوبا بالخبر فى الخرج فانتشر ذلك حتى بلغ أبا جعفر ثم رجع الأمير وبعث بعد ذلك بدرا مولاه وتمام بن علقمة فى جيش إلى طليطلة فحاصره هشام بن عروة وقطع الأمير البعوث على الأجناد وجعلها بينهم دولا فى كل ستة أشهر فإذا انقضت دولة ندب أخرى حتى مل أهل المدينة الحصار واستثقلوا الحرب

وكاتبهم مع ذلك تمام وبدر فأسلموا هشاما والعمرى وحيوة وبروا بهم فخرج تمام يريد تبليغهم إلى قرطبة وأقام بدر فى موضعه منتظرا لرأى الأمير فى المدينة فلما صار تمام بأوريط لقى عاصم بن مسلم الثقفى فأمره بالرجوع إلى طليطلة واليا عليها وأن يقفل بدر ، وقبض منه القوم فرجع تمام بما أعلمه به ابن مسلم من رأى الأمير ، وأقبل الثقفى بالقوم حتى حل بقرية حلوة فأمر الأمير العبدى وكان صاحب الشرطة فأخذ لهم جبة جبة من صوف وأخذ معه حجَّاما وحميرا ثم مضى إليهم فحلق رءوسهم ولِحَاهم وألبسهم الجبب وأدخلهم فى سلل ثم حملهم على الحمير وأدخلهم قرطبة فقال العمرى وكان ضعيفا لحيوة لقد ألبست جبة ضيقة فقال له حيوة ليتك تُركت تبليها ، ثم أمر بهم الأمير فقُتلوا وصلبوا ثم ثار بعد ذلك سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى بلبلة وذلك أنه سكر ليلة فذكر عنده قتل اليمانية مع العلاء فاعتقد فى رمحه لواء فلما أفاق من سكره ونظر إلى العقدة قال : ما هذا قيل له : اعتقدت البارحة هذا اللواء غضبا لقتل قومك ، فقال : حلوا العقدة قبل أن يرفع خبرها ثم بدا له فقال ماكنت لأرجع عن رأى وكان نجداً فأرسل إلى قومه فاجتمعت إليه جماعة وأقبل حتى دخل قلعة رعواق ، وأقبل الأمير إذ انتهى إليه خبره حتى نزل به فخرج المطرى يقاتل فاستلحم هو وسالم بن معاوية الكلاعى فاستخلف القوم على أنفسهم خليفة بن مروان اليحصبى فاستأمن لنفسه وللقوم فأمنهم الأمير ، وخرجوا من القلعة ورجع الأمير ثم ثار أبو الصَّبَّاح وكان سبب ثورته أن الأمير قد كان ولاه أشبيلية ثم عزله فنقم ذلك فألبَّ وكاتب الأجناد فلما انتهى الخبر إلى الأمير وبعث إليه بكتبه من غير موضع أعمل الحيلة فى استقدامه إلى قرطبة فذكر أن عبد الله بن خالد سار إليه بعهده فقدم به فلما قتله الأمير اعتزل عبد الله ولزم منزله الفتين حتى مات لم يعمل للسلطان عملا ، ويقال إن تمام بن علقمة استقدمه على اللطف به من غير عهد فلما قدم قرطبة أدخله الأمير على نفسه وكان معه أربعمائة فارس من جنده فعاتبه فأغلظ الأمير وتهدده فشاوره الأمير ودعا جارية سوداء مدنية كانت قيمته وكانت تصلح عليه من حال الجوارى وتتولى حملهنَّ على أدبه واستحسانه فأتته بخنجر وقد كان الشيخ همَّ أو كاد يبسط يده وأمر الفتيان به ثم طعن فى

أوداجه بالخنجر حتى أوهنه ثم قتله الفتيان وأمر الأمير بلفه فى مسح شعر وتنحيته وتغيير أثر دمه ثم أدخل وزراءه فاستشارهم فى قتله ولم يعلمهم إلا أنه محبوس عنده فلم يشر عليه منهم أحد بقتله وقالوا لـه على الباب أربعمائة فارس وجند الأمير غائب ولا نأمن أن يحدث من ذلك بلاء إلا أن المروانى أشار عليه بقتله وله فى ذلك أبيات من شعر وهى :

(١)لا يُفلِتنك فيَاتِينا ببائقة   اشدد يديك به تبرأ من السقم

فقال لهم قد قتلته ثم أمر برأسه فأخرج وصاح الصائح على أصحابه أن أبا الصباح قد قُتل فمن أراد أن يلحق ببلده فليلحق أمنا فافترقوا ولم يكن حدث ثم ثار الفاطمى بعد ذلك إلى أربع سنين وكان اسمه سفيان بن عبد الواحد المكناسى(٢) وكان اسم أمه فاطمة وأصله من لجدانية ، معلم كتاب فادعى أنه فاطمى فوثب على سالم أبى زعبل عامل ماردة ليلا فقتله وغلب على ناحية قورية وأفسد يمينا وشمالا وخرج إليه الأمير الغزاة التى تسمى غزاة الدور فهرب إلى المفاز فدوخ الأمير البلد ووطأه وأنزل بكل من شايعه أو دخل فى شىء من أمر النكال فهو يخرب ويحرق وينسف حتى قدم عليه كتاب من قرطبة من عند بدر مولاه ، وكان يخلفه يذكر أن حيوة بن ملامس ثار فى أشبيلية فى أهل حمص وكان حضرميا وثار معه عبد الغافر اليحصبى وكان مع الأمير فى العسكر من رجال أشبيلية ملهب الكلبى وابن الخشخاش وابنه فلما قرأ الكتاب قفل وأخذ السير حتى نزل المسارة فتقبض على ثلاثين رجلا من أهل أشبيلية فيهم الذين سميًّنا وأمرهم إلى الحبس ، ثم مضى إلى القوم وكانوا قد أقبلوا حتى نزلوا بميسر وخندقوا على أنفسهم فنازلهم الأمير فحاربهم أياما وكان معهم بربر الغرب فأمر بنى ميمون بمكاتبتهم وأن يعدهم بحسن رأى الأمير ، ثم وضع الشراء فى المماليك واللحق فتاب الناس إليه وسارعوا نحوه حتى صار منهم فى ديوانه جماعة فأمر بحربه وأوصت البربر إلى بنى ميمون إذ ملت الحصار والقتال أنا سننهزم غدا بالناس

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت الحموى .
(٢) له دور فى قلب القبائل المضرية .

إذا نشبت الحرب فليبق علينا فلما كـان من الغد واستحرَّت الحرب فعل ذلك البربـر وجروا الهزيمة فلم يبق على أحد لابربرى ولا عـربى ، وأخذهم السيف فقُتلوا قتلا ذريعا لم يعلم قتل مثله كان أكثـر من قتل المسودة مع العلاء وقتل حيوة وأفلت عبد الغافـر فركب البحر ولحق بالمشرق وكتب الأمير إلى بدر أن يقتل الثلاثين رجـلا الذين كان أمر بحبسهم فقتلهم فعند ذلك اشترى بزيع الحارث بن بزيع قاتل فأبلى وأجزأ وظهرت منه نجدة فقال له الأمير أعبد أنت أم حـر فقال: بل عبد فأمر بشرائه فـاشتُرى وعرفه فى عرافة السـود وهى كانت العرافة فى ذلك الدهر لا تعرف العرافة التى هى اليوم إلى أن أخذ بها الأمير الحكم رحمه الله وإنما كان الناس صنفـان فرسان ورجالة فكل من ركـــب فأمـره إلى صـاحب الرجـالة عبد الحميـد بن غانـم لا يعرف فرسـان ولا حرس كما هم ثـم غزا الأمير ذلك العـام فى أثر الفاطمى فهـرب الفاطمى حتى أمعن فى المفـاز وجاوز القصر الأبيض فـرجع الأمير ثم ثار عليه يحيى ابن يزيد بن هشـام الذى يقال له اليزيدى ، وعبيد اللـه بن أبان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وسـاعده ابن ديوان الحيشانى وابن يـزيد بن يحيى التجيبى وابن أبى ؟ فلما اجتمعوا على الخروج عليه تدلى مولى لعبد الله من السور ليلا وكان مسلما وأقبل القصر إلى بدر وكان الأمير متنزها بوادى شوش على الصيد فأخبره الخبر فبعث بدر بريدا إلى الأمير بالخبر فدعا سماعة مواليـه وصاحب خيله وقال له : امض فيمن أمكنك من أصحابك إلى عبيد الله بن إبـان فتقبض عليه ودعـا عبد الحميـد بن غانم صـاحب الرجـالة فقـال له : اذهب تقبض على يحيى بن يـزيـد فأقبل كل واحد منهما حتى تقبـض على صاحبـه فأقبل الأمير فنـزل الرصـافة فأمـر بهما إلى الحبس وتتبع الآخـرين فلما جمعهم أمر بضرب أعنـاقهم وسحبت جيفهم من رصـافة إلى الحصا بقـرطبة ثم ثـار على الأمير إلى سنة عبـد الرحمن بن حبيب الفهرى الذى كان يقال له السقـلابى بتدمير فكاتب سليمان الأعرابى الكلبى وكان ببرشلونة ودعاه إلى الدخول فى أمره فكتب إليه الأعرابى إنى لا أدع عونك فامتعض الفهرى من جوابه إذ لم يجمع له فغزاه فهزمه الأعرابى فكر الفهرى إلى تدمير فخرج إليه الأمير فدرس

تدميرا فنزع إلى الفهرى رجل من البرانس مـن أهل أوريط[1] يقال له ميجعـان فصار من أصحابه وظهـرت له منه نصيحة حتى صار من ثقـاته واطمأن إليه فاغتـاله البرنسى فقتله وأخذ خيـــله ونزع إلى الأمير ، ثم وجه الأمير تماما وأبا عثمان فى عسكـر إلى الفاطمى وهو فى حصن فقدّما إليه وجيها الغسانى رسـولا وكان ابن أخت أبى عثمان فدعاه الفاطمى إلى أمره فأجابه وأقـام عنده ثم أقبل تمام وأبو عثمان فى عسكرهما فنازلا الفاطمـى فاقتتلوا قتالا شديدا كان الظفر فيه للفـاطمى ، ثم قفل عنه العسكر ومضى الفاطمى إلى جهة شنتبرية فنزل بها فى قـرية يقـال لها قرية العيـون فاغتـاله أبو معن داود بن هـلال وكنانـة بن سعيد الأسود فقتلاه وهرب وجيه الغسانى فحل بساحل ألبيرة فأرسل إليه الأمير شهيدا وعبدوس ابن أبى عثمان فألفياه يوم عيد فى حال اغترار فقتلاه وكان الأمير إذ وجه شهيدا وعبدوسا إلى وجيه قد وجه بدرا إلى إبراهيم بن شجرة البرنسي المروانى فغشيه أيضـا بدر فى منزله فى اليوم الذى غشى فيه شهيد وعبدوس وجيها فقاتل قتالا شديدا وكان نجدًا حتى قتله بدر ثم ثار على الأمير السلمى وذلك أنه كـان حسن المنزلـة عند الأمير فسكر ليلـة فأقبل فوجـد باب المدينة قد قفل فـأراد أن يفتح باب القنطرة فثار إليه الحرس فحمل عليهم بـالسيف فانتهى الخبر إلى العبدى وذلك ليلا فأمنـه وسكنه لما كان فيه من السكـر فلما أفاق من سكره وفهم فعله خاف الأمير فهرب نحو الشرق فتحصن بمـوضع رجا التحرز فيه فبعث الأمير فى تبعه حبيب بن عبـد الملك القرشى فغشيـه فبرز إليه ودعـا إلى البراز فبرز إليه أسود كـان لمغيث فاختلفا ضربتين فماتـا معا ثم ثار الرمـا حس بن عبد العزيز الكنـانى وكان والى الجزيرة ، فـاعتقد يـوم الاثنين وجاء الخبر إلى الأمير يـوم الجمعـة فخرج إليـه يوم السبت فلم يشعـر الرماحس يوم الأربعاء إلى عشرة أيام من خلعانه حتى طلقت عليه الخيل ، وكان فى الحمام قد أطلى بالنورةفطرح النورة عن نفسـه ودخل بأهله فى مركب فجاز فى البحر حتى قدم على

(١ له ذكر فى الحلة السيراء لابن الآبار .

أبى جعفر المنصور ثـم ثار سليمان الأعرابى بسرقسطة وثار معـه حسين بن يحيى الأنصارى من ولد سعد بن عبادة فبعث إليه الأمير ثعلبة بن عبد فى جيـش فنازل أهل المدينة وقاتلهم أياما ثم أن الأعرابى طلب الفرصـة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب وقالوا قـد أمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينـة أعد خيـلا ثم لم يشعر النـاس حتى هجم على ثعلبة فأخذه فى المظلة فصار عنده أسيراً وانهزم الجيش فبعث به الأعرابى إلى قارلة فلما صار عنده طمع قارلة فى مدينة سرقسطة من أجل ذلك فخرج حتى حل بها فقاتله أهلها ودفعوه أشد الدفع فرجع إلى بلده وخرج الأمير غـازيا إلى سرقسطة فلما صار فى المحلة دون فج أبى طويل فأخـر حفص بن ميمون غالـب بن تمام ففضل مصمودة على العرب فضربـه غالب بالسيف فقتلـه فلم يكن من الأمير فى ذلك نكير ومضى فى غزاته حتى حل بقريـة شنتبرية فأخذ بها ناسا بلغت عدتهم ستة وثلاثين رجـلا منهم هلال وفات ابنه داود قاتل الفاطمى فردَّهـم إلى قرطبة فحبسـوا فى دار فى المدينة ، وهـو موضع الحبس الموضع بسببـه ثم مضى فقبل أن يبلغ الأمير سرقسطة عـدا حسين بن يحيى الأنصارى على الأعرابى يوم جمعـة فقتله فى المسجـد الجامع ، وصار الأمـر لحسين وحده فنـزل بـه الأمير وكان عيسـون بن سليمان الأعرابى قد هرب إلى أربونة فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر فنظر يوما إلى قاتل أبيـه قد خـرج عن المدينة وصار على جـرف الوادى فأقحم عيسـون فرسا لـه كان يسميه النـاهد فخلف وقتله ، ثم رجع إلى أصحـابه فسمى ذلك الموضع إلى اليـوم مخاضة عيسون ، ثم استدعـاه الأمير حتى صار فى عسكره وحارب سرقسطـة معه فلما ضاق أهل المدينة من الحصار طلب حسين الصلح وأعطى ابنه رهينة فقبل ذلك الأمير منه ورجع عنه وكان اسم ابنه ذلك سعيدا وكان نَجِدًا فلم يقم فى عسكر الأمير إلا يوما حتى أعمل الحيلة فهرب إلى أطيار له بأرض بليارش ومضـى الأمير فدوخ بنبلونة وقلنيرة وكرَّ على البشقنش ، ثم على بلاد الشرطانيس فحل بابن بلسكوط فأخـذ ولده رهينة وصالحه على الجزية وخاف الأمير على عيسون فأمر بضمه إلى الحبس وكـان وهب الله بن ميمون إذ قتل غالب بن تمام

أخاه حفصا قد قال : والله لئن لم تغضب لنا قريش ليغضبن لنا سبعون ألف سيفٍ فأمر بحبسه فلما رجع الأمير إلى قرطبة قعد فى علية فى الرصافة ثم دعا بوهب بن ميمون فأمر بقتله ودعا بعيسون فلما أقبل قال عندى نصيحة فقيل له قل نصيحتك فليس يصل إلى الأمير أحد وكانت معه سكين قد أعدها أراد قتل الأمير فلما لم يصل إليه تحول فطعن الفتى الذى كان كلمه فجرحه جرحة مات منها وجال فى الجنان جولة ، وقد تحاماه الأعوان فأقبل يوسف صاحب الحمام ومعه عود كان يسجر به النار فضربه الرأس حتى قتله ، ثم أمر الأمير بسحب جيفته وجيفة وهب بن ميمون من رصافة إلى موضع الحصا على النهر بقرطبة وصلبا تحت القصر فلما صار ولد حسين عنده عاد إلى نفاقه فخرج إليه الأمير غازيا إلى سرقسطة فعند ذلك نصب عليها المجانيق من كل جانب فيقال إنه حفَّها بستة وثلاثين منجنيقا وضيق على أهلها أشد الضيق فترامى القوم إليه وأسلموا إليه حسينا فلم يقتل من أهل المدينة غيره وغير رجل كان يسميه من أهلها يقال له رزق من البرانس فقطع يديه ورجليه فمات ، ثم رجع إلى قرطبة فحل فى الرصافة ، وكان ابن أخته مغيرة بن الوليد بن معاوية قد أراد الثورة عليه وساعده هذيل بن الصميل بن حاتم فأتى الأمير علاء بن عبد الحميد القشيرى فأخبره الخبر فبعث فى مغيرة وهذيل وكل من أراد ذلك الرأى فاستنطقهم فأقروا فأمر بقتلهم ، ثم رحل عن رصافة إلى القصر ثم ثار محمد بن يوسف أبو الأسود فأقبل فيمن أتبعه من أهل الشرق حتى حل مدينة قسطلونة فخرج إليه الأمير فنازله بها أياما حتى فُضَّ جمعه فانهزم وقُتل من أصحابه أربعة آلاف فأخذ إلى ناحية قورية فأتبعه الأمير من سنته فهرب إلى المفاز فأدرك له عيالا فأخذهم وقتل له رجالا وداس البلاد بالخراب ورجعت وكانت آخر غزواته ، ثم مات الأمير عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله بعد ثلاث وثلاثين سنة وثلاثة أشهر من ولايته .

وكتب إلى عبد الرحمن بن معاوية بعض من وفد عليه من قريش يستقصره فيما يجريه عليه ويسأل له الزيادة ويستطيل عليه بدالة القرابة فكتب إليه :

شتـــان من قـــام ذا امتعـــاض   منتضـى الشفـــرتين نصـــلا
فجـــاب قفـــرا وشق بحـــرا   مســـاميـــا لنجـــدة ومحلا
فبـــز ملكـــا وشـــاد عـــزا   ومنبرا للخطـــــاب فصـــلا
وجنَّـــــد الجنــــد حين أودا   ومصَّر المصر حين أخــــــلا
ثـم دعـــا أهلـــه جميعـــا   حيـث انتـــووا أن هلـم أهـــلا
فجـــاء هـــذا طـــريـــد جـــوع   شريـــد سيف أبيـــد قتـــلا
فنـــال أمنـــا ونـــال شبعًـــا   ونـــال مـــالا ونـــال أهـــلا
ألم يكـــن حـــق ذا على ذا   أعظـم مـن منعـم ومـــــولا

وكان خـارجا إلى الثغـر فى بعض غزواتـه فوقعت غـرانيق فى جانب من عسكـره وأتاه بعض من كان يعـرف كلفه بـالصيد يعلمه بـوقوعها ويشهيـه بها ويحضه على اصطيـادها فأطرق عنه ثم جاوبه :

دعنى وصيـــد وقع الغـــرانق   فـإن همى فى اصطيـــاد المارق
فى نفق إن كـــان أو فى حـــالق   إذا التظت هـــواجـــر الطـــرائق
كـــان لفـــاعى ظـل بنـــد خـــافق   غَنِيت عـن روض وقصر شـــاهق
بـــالقفـــر والائطـــان فى السرادق   فقـل لمن نـــــام على النمارق
إن العـــلا شُـــدت بهم طـــارق   فـــاركـب إليهـــا ثبـج المضـــائق

أو لا فانـــت أرذل الخلائـــق

قال أبو جعفر عبد الله بن محمد الملقب بالمنصور يوما لأصحابه من صقر قريش قالوا أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء وأقاد بالا قال : ما صنعتم شيئا قالوا : فمعاوية قال ولا هذا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال : لا قالوا فمن ياأمير المؤمنين ، قال : عبد الرحمن بن معاوية الذى تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف يعبر القفر ويركب البحر حتى دخل بلدا أعجميا فمصّر الأمصار وجند الأجناد وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه .

إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه وعبد الملك ببيعة تقدمت له وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته وعبد الرحمن منفردًا بنفسه مؤيدًا برأيه مستصحبا لعزمه وغزا سرقسطة وبها ابن الأعرابى فخرج إليه يريد منعه من الاحتلال بابها فغلبه عبد الرحمن بعد حرب زبون دارت بينهما وجعل عبد الرحمن فى ذلك الموقف يطوف بعسكره ، ويشرف على أحوال رجاله فى معركتهم فنظر إلى رجل من الفرسان قد نزل عن فرسه وظهرت منه كفاية فى مقامه وهو يتمثل بقول الشاعر :

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا وأخو الحرب من أطاق النزولا

فقال لفتى له انظر هذا الرجل فإن كان من أشراف الناس فاعطه ألف دينار وإن كان من أفناء الناس فاعطه شطرها فلما ذهب إليه إذا به رجل من العرب يقال له القعقاع بن زنيم من أهل رية فأعطاه الألف الدينار فلحق بالشرف إلى أن استقصاه الأمير عبد الرحمن ابن معاوية على جنده بالأردن وآلت الحال به إلى أن خرج عليه ، ثم ظفر الأمير عبد الرحمن به فأقاله واستقصاه رغبة فى أن لايفسد يده عنده .

وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن خيِّرًا فاضلا جوادا كريما مع حسن سيرته فى رعيته وتحصينه لثغوره أوصى رجل فى زمان هشام بمال فى فك سبية من أرض العدو فطُلبت فلم توجد احتراسًا منه بثغره واستنقاذا لمن سبى وضعفا من عدوه عنه ولم يقتل أحد من جنده فى شىء من ثغوره أو جيوشه إلا ألحق ولده فى ديوان أرزاقه ولما وصفت سيرته لمالك بن أنس

ونُشرت فضائله عنده قال : وددت أن اللـه زين موسمنا بـه ، حكى ذلك الفقيه ابن أبى هند[1] وكان قد لقـى مالكا وأخذ عنه وذكـر عنه أن الهوارى دخل عليه فقـال مات فلان عن ضيعة تعود بكذا وفخم أمرها وعليه دين تبـاع وحضه على شرائها فقال : أنا أريد أمراً إن بلغته استغنيت عنهـا وإن لم ابلغه فما أقلهـا واصطناع رجل واحـد أحب إلىّ من ضيعة قال : فاصطنعنى بها فأمر له بثمنها وكان هشام يصر الصرر بالأموال ، ويبعث بها فى ليالى المطر والظلمة إلى المسـاجد فتعطى من وجد فيها يـريد بذلك عمارة المساجد وذكـر عنه أنه كان من أشد الناس قمعا للمسلط من عمالـه وخدمته تعرض لموكبه رجل متظلم من بعض عماله فحال لجب الموكب عن سماعه وكان فى الموكب بعض من يشفق على العامل فبدر إلى المشتكى وستره فى قبته وبسط له الأصناف ووعده إيـاه ، ثم كتب إلى العامل بأمره فذهب فى استلطافه واستمالته حتى رضى فذكر لهشام تعرض المشتكى وانصرافه عنه دون بلوغه إليه فأعظم ذلك وأكبره فقيل لـه إنـه قد أنصف وفُعل بـه وفُعل فقـال إن النصفة للمظلـوم لا تكون من الظالم دون تسليط الحق عليه وبعث فى المظلوم فقال احلف على ما ركب منك ألا إن يكـون أصاب منك حـدا فى الله فجعل لا يحلف على شىء إلا أقـاد منه فكـانت تلك الزجرة لجميع عمالـه أبلغ من السوط والسيف ومن أخباره قبل إفضاء الخلافة إليـه أنه كان قاعدًا فى غـرفة له مطلة على النهر ينظـر منها إلى الربض فوقعت عينـه على رجل من كنانة كان صنيعـه له مقبلاً من كورة جيـان وكان من أهلها ، وكـان أبو أيوب أخوه واليـا بكورة جيـان فلما رآه قد أوضع فى السير وذلك فى الهاجـرة دعا بعـض فتيانـه فقال أرى الكنـانى صنيعتنا مقبلا ولا أحسبه أقبل به فى ذا الوقت إلا أمر أقلقه من أبى أيوب فقف بالباب فإذا بلغك فأوصله إلىّ على حـالته فلما بلغ الكنـانى إليه أوصله إلى هشـام وكان معـه فى مجلسه جارية لـه فأسدل الستر عليها ثم قال : مـاخبرك ياكنانى فلا أحسبـك إلا قد همك أمر ، قال الكنانى : نعم قتل رجل من كنـانة رجلا خطاء فحُملت الدية على العـاقلة فأخذ بنو كنانة عامة وحيف علىّ من بينهم خاصة ، وقصدنى أبو أيوب إذ عرف منك مكانى فعذتُ

---

(١) وهو عبد الله بن أبى هند ، وله ترجمة فى ترتيب المدارك للقاضى عياض .

بك من ظلامتى ، قال : ياكنانى يسكن روعك قد تحمل عنك هشام وعن قومك العاقلة ثم مد يده من وراء الستر إلى لبة[1] كانت على الجارية فأخذها منها فإذا بعقد شراؤه عليه ثلاثة آلاف دينار فدفعه إليه وقال له أدِّ به عن نفسك وعن قومك وتوسع فى الباقى فقال : إنى لم أتك مستجديًا ولا ضاق بى مال عن أداء ما حُملته ولكن لما أصبت بعدوان وظلم أحببت أن يظهر على عزّ نصرتك وأثر عنايتك قال : فما الوجه الذى تتمناه فى نصرتك قال : أن يكتب الأمير أصلحه الله إلى أبى أيوب فى الإمساك عن أخذى بما لم يجب علىَّ وأن يحملنى محمل عامة أهلى فقال أمسك العقد على حاله إلى أن ييسر الله ما رغبت فيه ، ثم ركب هشام فى وقته ذلك إلى الأمير عبد الرحمن وهو بالرصافة فقيل له : هشام بالباب فقال ما أتى به فى وقته هذا إلا أمر حدث عليه فلما أوصله ومثل بين يديه قائما قال له اجلس فقال : أصلح الله الأمير كيف جلوسى بهمٍّ أقلقنى وحزننى ثم قص عليه الخبر وسأله إسعاف مطلبه وقضاء حاجته فقال له أقعد مسعفا فيما طلبته مجابا إلى ما سألته ما الذى تذهب إليه فى أمره قال الكتاب له بالكف عنه وإلا يؤخذ بغير ما يلزمه قال الأمير عبد الرحمن : أو خير من ذلك إذ هو بهذه المنزلة من عنايتك أن تؤدى الدية من بيت مال المسلمين وتحمل عن بنى كنانة عامة حفاظا لك فيهم واطلبا لك فى أمرهم فأعظم هشام الشكر فى ذلك ثم أمر الأمير عبد الرحمن بأداء الدية من بيت مال المسلمين وبالكتاب إلى أبى أيوب فى ترك التعرض للكنانى وأهله فلما حضر خروج الكنانى ووصل إلى هشام لتوديعه قال ياسيدى إنى قد جاوزت حدّ الأمنية وبلغت أقصى غاية النصرة وقد أغنى الله عن العقد وها هو ذا فلا أكون مباركا على بنى كنانة فيما يحمل عنهم مشوما على الجارية فيما انتُزِع منها قال له هشام : ياكنانى لا يرجع إلى شىء خرج على هذه السبيل عنى خذْه مباركا لك فيه وسيعوضه الله الجارية خيرا منه .

وكان الأمير الحكم بن هشام رحمه الله شجاعًا حازمًا مظفرًا فى حروبه أطفأ نيران الفتن

---

(١) اسم مدينة بالأندلس من ناحية البحر المحيط .

بالأنـدلس ، وكسر فروق النفاق وأذل أهل الكفر فى كـل أفق وكان مع نجدته وعـزة نفسه متواضعا للحق منقادا للإنصاف من نفسه فضـلا عن ولده وسائر خاصته يتخيَّر لأحكامه أورع من يقدر عليه وأقضاهم بـالحق وكان له قاضٍ قد استكفاه أمـور رعيته لفضله وزهده وورعه وذكر أن الذى أثره به وعظمه عنده أن رجلا من أهل كورة جيان اغتصبه بعض عمال الحكم جاريـة له ، فلما عزل العـامل عمل فى تصيير الجارية إلى الحكم فلما صـارت عنده واتصل بالـرجل المغصوب حال القـاضى فى أحكامه واستخـراج الحقوق للرعيـة من يدى الحكم وأهل خاصته أتـاه وشرح له خبره فدعاه إلى إقامة البينة فشهـد له من قبل علمه على المعـرفة بما قـال به وتظلم منـه وعلى معـرفة عين الجاريـة فأوجبت السنة أن تحضر الجاريـة فاستأذن القـاضى للدخول على الحكم فلما صار عنـده قال إنه لا يتم عدل فى العـامة دون إفاضتـه فى الخاصة وحكى له أمـر الجارية وخيره فى إخراجها و إبـرازها للسنة أو عـزله عن القضاء ، فقال : أو خَّير من ذلك تبتـاع من صاحبها بأنفس ثمنها وأبلغ ما يسألـه فيهـا قال : إن الشهود قد شخصوا من كورة جيـان يطلبون الحق فى مظانَّه ، فلما صاروا بفنائك تصرفهم الحق دون إنقـاذ الحق لأهله فلعل قـائلا أن يقـول باع مـالم يملك بيع مقتسر على نفسه ولابد من إبراز الجارية أو تصيرّ أمرك إلى من أحببـت فلما رأى عزمه أمر بإخراجها من قصره وقد كانت وقعت من نفسه موقعا فشهـد على عينهـا وقضى بها لصاحبها ، ثم قال له : إيـاك وبيعها إلا فى بلـدك لتقوى بذلك الـرعية على طلبـاتهم وبيعتهم على استخراج حقوقهم فلما توفى ذلك القاضى اكتئب الحكم لمصـابه وجزع على وفاته فحكى عن عجب جاريته قـالت إنى لفى الليلة التى أعلم فيها بوفـاة القاضى عنده بائتـة فلما كان فى جوف الليل فقدتـه عن مضجعه فخرجت أطلبـه فإذا هو قائم يصلى فى دكان الـدار فقعدت فيما يليه أنتظره فسجـد سجدة أطالها حتى غلبتنى عيناى ثم انتبهت فإذا هـو ساجد على مثل حاله ثم غلبتنى عينـاى فما راعنى إلا وهو يحركنى لانصداع الفجر فأقبلت عليـه أسأله ما الذى أقلقه عن فراشه قال خطب عظيم ومصـاب جليل كنت قد تفرجت من أمور الرعية بالقاضى الذى كان اللـه قد كفانى به ماكفانى فخشيت ألا أصيب منه خلفـا فدعوته الله

عز وجل أن يوفق لى قاضيا مثله أجعله بينى وبين الناس فلما أصبح دعا بوزرائه ثم قال لهم تخيروا للرعية من يتـولى الحكم فيهم واستعين به على ماقلدته من أمورهم فـدل مـــالك بن عبد اللـه القرشى على محمد بن بشير وكان كـاتبا له بباجـة فلما فهم من فضله واختبره من ورعه فوقع بنفس الأمير الحكم ووفق لولايتـه فلما أن ولاه فضل جميع من تقدمه عدلا وورعا وزهـــدا ، ولم يدع التمادى على ما كان عليه من هيئته ونظافة ملبسه .

كان يخرج إلى المسجد ويقعد للحكم فى إزار مورد ولمة مفـرقة فإذا طلب ما عنده وجد أفضل الناس وأورعهم وأزهـدهم وأتى رجل من بعض الأطـراف إلى المسجد الجامع يسأل عنه وكـان فى زيه الذى ذكـرنا قاعدا فمال إلى حلقـة يسألهم عنه فدل على الحلقـة التى كان فيهـا فلما أتاه ووقف عليـه رجع إلى القـوم فقال لهم إنى رحمكـم الله تـوسمت الخير فيكم وقصدتكم فصرتـم تهزءون بى دللتمونى على عـزاف غررتمونى قالوا لا والله ما غـررناك وإنه للقاضى تقدم إليه فستجد عنده أفضل مـا يسرك فلما وقف به أدناه من نفسه ثم باحثه عن مطالبه فـوجد منه ما أنس إليـه وتفرج به فرجع عنـه إلى القوم فقال جُزيتـم خيرا فـوالله لقد صادفت أكثـر مما آملت وكان عبـاس بن عبد اللـه بن مروان القرشى من الخاصـة بالأمير الحكم والمنزلة عنـده بحيث لم يدانه أحد فى زمـانه فقام عليه رجل فى ضيعـة كانت له تحت يده فأثبتهـا عنده ابن بشير القاضـى فلما علم القرشى بأن القضى . . .[1] على أن يوجه الحكم عليه عاذ بـالأمير الحكم واشتكى إليه ما ناله من القاضى وسألـه صرفه عنه إلى غيره وجعل يتوبغـه ويقع فيه فقال لـه الحكـم إن كان حقـا ما تقول فـامض بنفسك إليه فى داره وهو غير قاعد للحكم فـإن أخلاك نفسه وأدخلك عليه فقد صدقناك وعـزلناه فقال افعل فوكل بـه الأمير الحكم بعض فتيانـه ليمتحن ما يكون من القـاضى فخرج القـرشى والأزقة تغص بموكبه حتى أتى بـاب القاضى فقرع الباب فخرجت إليه عجـوز له فأعلمها بنفسه وأمرها أن تستأذن له عليه فلما علم به نَهَرَ العجوز وقال لها قولى له إن كانت له حاجة فتكن

---

(١) بياض فى الأصل .

فى المسجد مع طلاب الحوائج حتى أخرج إليك فليس إلىّ إدخالك من سبيل فتردد عليه ، وألحف فلم يؤذَن له فرجع الفتى إلى الحكم فأعلمه بما كان من القاضى فطار به سرورا ووفد على الحكم رحمه الله رجل من بعض أطراف ثغوره من ناحية لحدانية فسأله عن الثغر وحاله فذكر خرجة كانت للعدو عليهم وأنه سمع امرأة تصيح بأعلى صوتها واغوثاه بك يا حكم فلقد غفلت عنا حتى تركتنا نهبا للعدو فأحفظه ذلك فتجهز فى وقته ، وخرج بنفسه حتى أتى ذلك الثغر فأمكنه الله من العدو فى ناحيته وأظفر عليهم فافتتح المعاقل وأصاب الأسرى ثم خرج قافلا وقال للوافد عليه : دُل بنا إلى موضع المرأة التى سمعتها صارخة فقصد به نحوها فلما خرجت إليه دفع إليها عدة من الأسرى تفادى بهم من أُسِر من أهلها وضرب أعناق الباقين بحضرتها : ثم قال لها أغاثك الحكم أم غفل عنك قالت لا بل أغاث ونصر فنصره الله وأغاثه وأتاه الخبر أن جابر بن لبيد يحاصر بجيان وهو فى الحائر مع فرسان من خواصه يلاعبونه على خيلهم وكان له ألفا فرس مرتبطة على شاطىء النهر . . . (1) القصر يجمعها داران على كل دار عشرة عرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس فالعرفاء يشرفون عليها وتُعلف بين أيديهم وينظرون فى تعويض ما تعذر منه لتكون معدة قائمة لما عسى أن يفاجأ من أمر يفرغ إليه بها فإذا كانت حركة كانوا كنفس واحدة فدعا بأحد أولئك العرفاء فلما مثل بين يديه أسرَّ إليه بالخروج إلى جيان إلى ابن لبيد من وقته فى عرافته ، وأمره أن لا يعرف أحد وجه طريقه ، ثم عاد إلى لهوه فلما مضت ساعة دعا بثانٍ من عرفائه فأسرَّ إليه بمثل ذلك ودعا عشرة فخرجوا متتابعين لا يعلم أحد منهم بقصد صاحبه حتى تساقطوا على ابن لبيد فى اليوم الثانى من لدن أصبح إلى الليل فلما رأى ذلك عدوه سقط فى أيديهم وظنوا أنه قد أحيط بهم ، وأن أقطار البلاد منسوية إليهم فولوا منهزمين من وقتهم فاستباحتهم الخيل وأصاب عسكرهم فأتت الرءوس إلى الثالث والحكم مع مواليه فى الحائر

---

(1) بياض فى الأصل .

لا يعلم أحـد منهم بمعنى الخبر حتى أنبأهم بـه وحكى من الحكم أنـه لما قـام عليـه أهل الربض وراموا خلعه وكـانوا شوكـة عسكره وعظما أهل بلـدته التـزم الصبر فى مكافحتهم وثبت على منـاجـزتهم فلما اشتـدت الحرب واستحر القتـال والقتل دعـا بغـاليـة تغلل بها وبمسك فذَرَّه على مفارق رأسه فقال له يزنت فتاه أهـذا يوم طيب ياسيدى فانتهره وقال له هذا يوم وطنت نفسى فيه على الموت أو الظفر بعدوى فأردت أن يعرف رأس الحكم من بين رءوس من يقتل معه وكتب إليـه عاملـه على ماردة يعلمه عن خـارج من أهل بربـرها على الرعية ويستأذنه فى حربه فحكى بعض عـرفاء الحكم قال : دعانى ولا أعرف بما كتب إليه به العامل وقد كنت عارفا باسم الرجل على سكون ودعة فدخلت عليه وهو قاعد فى بعض الصحون فقـال لى : أمجتمعون أصحابك ، قلـت : نعم أكرم الله الأمير ، قـال : أتعرف فلانا ، قلت : نعم ، قال : فأتنى برأسه وإلا والله فرأسك مكانه وخذ من الحرب فى أجدّ ما أخـذت قط فلما وليتُ نادانى فانصرفت فقـال : إنى غير بارح من مقعدى هـذا منتظرا لك فتعجبت من تأكيـده علىَّ وتحذيره لى ،وخـرجت من فـورى ذلك حتى قدمت عليـه فوجدته متحرزا صعب المرام فما أعلم أنى لقيت من شـدة الحرب فى أحد مالقيت فيه ولقد كنت أهمُّ بالانحلال منه فإذا ذكـرت قوله وألا فرأسك والله مكانه لم أجد بـدا من مناجزته حتى أظفرنى الله به فقدمت إليه برأسه فى اليوم الرابع فوجدته قاعدا فى المكان الذى فارقته فيه فاخبرنى الفتيـان أنه لم يقم عنه بعد مفـارقتى إياه إلا لوضوء أو صـلاة ومن شعره الذى قاله بعد وقعة الربض :

رأبت صـدوع الأرض بالسيف راقعـا	وقدمًـا لأمت الشعب منذ كنت يـافعا
فسـائلْ ثغورى هـل بها اليوم ثغـرة	أبـادرهـا مستنضى السيف دارعـا
وشـافـه مع الأرض الفضـاء جماجما	كـاقحـاف شريـان الهبيـد لـوامعـا

تُنبئْك أنى لم أكن فى قــــــراعهـم بـوانٍ وقـدماً كنت بـالسيف قـارعـا

وإنى إذ حـادوا جـزاعًـا من الـردى فلم أكُ ذا حيـد مـن الموت جـازعـا

حميتُ ذمـارى فـانتهبت ذمـارهم ومن لا يحامى ظل خـزيـان ضـارعـا

ولما تسـاقينـا سجـال حـروبنـا سقيتم سمًا مـن الموت نـاقعـا

وهل زِدتُ إن وفيتُهم صـاع قـرضهم فـوافـوا منـايـا قُـدرت ومصـارعـا

فهـاك بـلادى إننى قـد تـركتهـا مهـادا ولم أتـرك عليهـا منـازعـا

وكان عثمان بن المثنى المؤدب يقـول : قدم علينا عباس بـن ناصح قرطبة أيـام الأمـير عبد الرحمن فاستنشدنى شعر الحكم فى الهيج فلما انتهيت به إلى آخر الأبيات حيث يقول :

وهل زدت أن وفيتهم صـاع قـرضهم فـوافـوا منـايـا قـدرت ومصـارعـا

قال : لو وضع الحكم الخصـومة فى أهل الربض لقام بعـذره هذا البيت ، ومن شعره فى الغزل وكان له خمس من جواريه قد غلبن عليه وخُلن بينه وبين سائر نسائه فأراد يوما أن يـدخل عليهن غيرهـن فتأبين عليـه وقُمن متغـاضبـات فلما ولين عنـه صرفهن وعمل فى استرضائهن وأنشد يقول :

قُضب من البـان مـاست فوق كُثبـان ولَّيْن عنى وقـد أزمعـن هجـرانى

نـاشـدتهُن بحقى فـاعتـزمن على العصيـان لما خـلا منهن عصيـانى

ملكننى ملكـاً ذلّتْ عـزائمُـه للحب ذُل أسيرٍ مُـوثـقٍ عـانى

من لى بمغتصبـات الـروح من بـدنى يُغصبننى فى الهوى عزّى وسلطـانى

وله فيهن :

ظل مـن فــرط حبــه مملــوكــا	ولقـــد كـــان قبل ذاك مليكـــا
إن بكــا أو شكــا الهوى زيــد ظُلْماً	بعـــادًا أدنى حمامـــا وشيكـــا
تـــركتــه جــآذر القصر صبـــا	مستهــامـا على الصعيد تــريكــا
يجعل الخدّ واضعـا فـــوق تــرْب	للـــذى يجعل الحريـــر اريكـــا
هـــاكـــذا يحسن التـــذلل للحـــرِّ	إذا كـــان فى الهوى مملـــوكـــا

وكان الأمير عبد الـرحمن بن الحكم رحمه الله حليما جوادا وكان لـه حظ من أدب وفقه وحفظ للقـرآن وروايـة للحديث حكـى عنه أنـه تمادى مع بعض جلسـائه فى حـديث من بعض المشاهد فلما تلاحيـا فيه قال اسمع كتب المشاهد حفظا فقـرأها ظاهرا وحكى بعض نقله الأخبار أنه لم يصل أحـد إلى روايته ومشافهته فسأله شيئا مما عـز أو هان فانصرف دونه وألفى الملك قد مُهد ووطد فخلا بلذاته وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التى جمع فيها ما تشتهيـه الأنفس وتلذ الأعين أدخلت عليـه يوما أمـوال وردت عليه فعبيت الخرائط بين يديـه وبث فتيانه بـالرسائل إلى خـدمه فخـلا مجلسه منهم حاشـا فتى كان قائما بين يـديه فتغشت عبد الرحمن سِنـة ظن بها الفتى أن النوم قد أثقله فبسط يـده على خريطة من المال أرسل عليها كمه وولّى وعبد الرحمن يلاحظه فلما تـوافى فتيانه أمرهم برفع المال وعد الخرائط فإذا خريطة ناقصة فتدافعوا فيها كل يتهم بها صاحبه فقال لهم عبد الرحمن أمسكوا عن هذا فقد أخـذها من أخـذها وعاينـه من لا يقولها وأمـر بضم المال ورأى أن كشف أخذهـا لوم حياء وكرما وتغضبت جارية من جواريـه عليه وأرسل فيها فامتنعت منه وغلقت بابها دونه فأمر ببنيان على بابها حتى سد الباب فلما فتحته تساقطت الخرائط عليها فإذا بنحو عشرين ألف دينار وأمـر لجارية من جواريـه بعقد شراؤه عليـه عشرة آلاف دينار فجعل بعض من

حضر من وزرائه يعظم ذلك عليه فقال له : ويحك أن لابسه أنفس منه حظرا وأرفع قدرا وأكرم جوهرا ولئن راق من هذا الحصباء منظرها ولطف فى الأعين جوهرها لقد برّا الله من خلقه جوهرا يروق ويسبى الألباب وهل على الأرض فى زينتها وشريف جوهرها وملاذ نعيمها ورفاهيتها أقر للعين وأجمع لمحاسن الزين من وجه أكمل الله حسنه وألقى عليه الجمال بهجته ، ثم قال لابن الشمر ، كان حاضرا هل يحضرك فى ذلك شىء فقال :

أتقرن حصباء اليواقيت والشذر   **إلى من تعالى عن سنا الشمس والبدر**

إلى من برت قدمًا يدُ الله خلقه   **ولم يك شىء غيره أبدا يبرى**

فأكرم به من صنعة الله جوهرا   **تضاءل عنه جوهر البر والبحر**

له خلق الرحمن ما فى سمائه   **وما فوق أرضيه ومكن فى الأمر**

فقال الأمير عبد الرحمن بن الحكم :

قريضك يابن الشمر عفّى على الشعر   **وجل عن الأوهام والفهم والفكر**

إذا شافهته الأذان أدّى بسحره   **إلى القلب إبداعًا فجل عن البحر**

وهل برا الرحمن من كل ما برا   **أقر لِعينٍ من منعمة بكر**

ترى الورد فوق الياسمين بخدّها   **كما فُوق الروض المنور بالزهر**

فلو أننى مُلكت قلبى وناظرى   **نظمتُهما منها على الجيد والنحر**

ثم أمر بخريطة فيها خمسمائة دينار فخرج والوصيف يحملها له فلما توارى عن الأمير قال له : يابن الشمر أين بات القمر الليلة ؟ قال : تحت كمك ياسيدى ، وغزا ماردة سبعة أعوام ولاء فلما كان العام السابع وأشفى بهم على العطب نظر إلى جنده قد تعلقوا

بشرافات السور وتغلبوا عليه وضعف أهل ماردة عن دفاعهم فسمع صراخ النساء وعويل الصبيان وعجيج البكاء فأمر بالإمساك عنهم وقبض أهل العسكر عن قتالهم ، ثم دعا بوزرائه وقواده وقال لهم : قد علمتم من تغلّب حشمنا ورجالنا على هؤلاء الظلمة لأنفسهم ولم يكن رفعنا ما رفعناه عنهم إلا رقبة لله عز وجل فيهم وتخوفا من قتل ولدانهم وأطفالهم ومن لا ذنب لهم ممن استكره على نفسه منهم ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عودنا الله وعرفنا من العفو والصفح وقد عزمت على الانتقال عنهم فإن أبصروا قدر يدنا فى الإبقاء عليهم ومراقبة الله فيهم ، وإلا كان الله من ورائهم محيطا وعلى الانتقام منهم قديرا فهو الذى أيدنا وقهرهم ونصرنا وكبتهم فلم ينتقل إلا محلة حتى أتته رسلهم بطاعتهم والإلقاء إليه بأيديهم وكتب إليه بعض مواليه يسأله عملا رفيعا لم يكن يشاكله فوقع فى أسفل كتابه من لم يصب وجه مطلبه كان الحرمان أولى به وكان عبيد الله بن قرلمان بن بدر مولاه من بعض ندمائه قد خرج مطلعا لضيعته فحضرت الأمير أريحية صار بها إلى مجالسة أصحابه وقد اقتصد ذلك اليوم فكانوا عنده فى أحسن مجلس ثم انقلبوا وقد وصل كل رجل من الخمسمائة إلى المائتين على قدر معروف كل رجل منهم فوقع الخبر على عبيد الله بن قرلمان فابتدر رجاء أن يدرك الصلة التى نالت أصحابه فكتب إليه :

يا ملكا حلّ ذُرى المجْد ... وعمّ بالإنعام والرفْد

طُوبى لمن أسمعتَه دعوة ... فى يوم إجماعك للفصد

فظل ذاك اليوم من قصفه ... مستوطنا فى جنة الخُلد

وقد عدانى أنْ أُرى حاضرا ... جِد متى تُحظِ الورى يكدى

فانتعشِ العثرة من عاثر ... عدت عليه انْحسُ القِرد

وامننْ بأصفادى عطًا لم تزل ... يشمل أهل القرب والبعد

فوقع فى أسفل أبياته من أثر التضجع فليرض بحظه من النوم ثم عاود فقال :

لانُمت إن كنتُ يــامــولاى محرومــا ... ولا طعمت على مــا نــالنى نــومــا

أشقى لحرمــان يــوم لا اعتيــاض بــه ... لـو أن من جنـة الفــردوس لى يــومـا

ورويتى منك وجهـا مــا اكتحلت بـه ... إلا تعـرفـت صنعـا منـه محتــومـا

فكيـف أمنـع وردا منـك آملـــــــه ... صـديان حـام رجاءى فـوقـه حومـا

فأمر له بالصلة وكتب فى أسفل كتابه :

لا غـرو إن كنت ممنـوعـا ومحرومـا ... إذ كنت آثـرت هـوبــا يـورث النـوم

ولم ينل امــــرؤ من عفـــوه أمـــلا ... حتى يشـــد على الإجهـاد حيــزومـا

فهـــاك من سيبنــا مــا كنت تأملـــه ... إذا حمت فـوق رجـاء الـورد تحويما

وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن حليما عفيفا كاظما لغيظه محتملا حسن الأدب بصيرا بالحسـاب ذكر منـه أنه كان يتـولى محاسبة أهل خدمتـه ويتعقب أمورهم بنفسـه لنفوذه فى الحسـاب وصحة قـريحته وتمكنـه فى فنـون العلم والآداب ، ثم يوقفهم على مـوضع الخلل والخطأ فى أعمالهم ومما يـؤثر من أناته وتثبتـه أن هاشم بن عبد العـزيز دسس على رجل من خدمـة الأمير من بغاه عنده وحشد من كـل جانب عليه وأبقى نفسه للمشـورة فى أمره فلما دخل فى بعض الأيام هاشم أخطر ذكره ليعلم ما وقـر له فى قلبه يستنكر من حالته شيئا ثم أعاد النـاس إلى الطلب والوقوع فيـه فتباطأ عليه مـا أمل من عزله إلى أن كشف وجهـه فيه وذكر عنه أكثـر مما كان يطعن به عليـه حتى أشاط دمه فأدخله الأمير محمـد عفى الله عنه فقال : يـا هاشم هـذا كتابك ، قال : نعم ، قـال : فما ترى فى أمره فقـد كثر عليـــنا فى جانبه ، قال : التنكيل له والتشريد بـه ، قال : يا هاشم على رسلك قُم إلى الكورة التى فى

المجلس فخذ ضبارة الكتب التى فيها فإذا بها تشتمل على نحو من مائة كتاب فقال : اقرأ فإذا كل كتاب موجب لقتله مشيط دمه فجعل يقرأ ويده ترعد وجبينه يرشح ووجهه يزبد فإذا فرغ من كتاب أمره بأخذ غيره حتى أتى عليها ، قال : يا هاشم ما معذرتك فى هذا ؟ فجعل يتنصل ويحلف ويقول حسادى وأهل الطعن علىَّ والتنافس لنعمة الأمير أبقاه الله عندى وحسن رأيه فى كثير والأمير سيدى أعزه الله أولى بالتثبت فى أمرى والإبقاء علىَّ حتى تنكشف براءتى ويتضح له وجه عذرى وهو على فعل ما لم يفعل أقدر منه على رد ما قد فعل ، قال : يا هاشم رُبَّ عجلة أعقبت ندما وليس من شيمتى الإسراع ولو كانت تلك لكنت أول هالك وقد خبرنا هذه المطالبات فرأينا أكثرها إفْكًا وزورًا ومع هذا فلو رددنا الإفك منهم وأظهرنا له الاعتراض عن تقبل منهم انكسروا عن مناصحتنا ونكلوا عن مكاتبتنا ، ولكنا نعنى ذلك فهما ونحيط به علما حتى نأتى عليه بعين جلية وصدق روية فإياك أن يعرف أحد من أصحاب هذه البطائق التى أطلعناك عليها أنك فهمت شيئا منها فنه إن علم أحد منهم أنه استذاع من كتابه لفظة عاقبتك بها أشد العقوبة ولم تقُم عندى لك بعد ذلك قائمة فانظر لنفسك أو دع ، ولما أصيب هاشم بكركر وصار إلى الأمير خبره وقع الأمير محمد فى جانبه فذكر أن ذلك إنما كان لطيشه وعجلته وقلة إحكامه لنظره وأنه لم يزل محدودا فى أمره ، والوليد بن عبد الرحمن بن غانم حاضر معَ الوزراء فلم يكن منهم أحد يتكلم غيره على مباعدة كانت بينهما فقال : أصلح الله الأمير لم يكن على هشام التخير فى الأمر ولا الخروج عن القدر بل استفرغ نصحه وأعمل جهده وحامى استطاعتك فاسلمه الله بخذلان من كان معه ونكول من أطاف به فجوزى عن نفسه وسلطانه خيرا فأعجب بذلك من مقالته وسرِّى عنه فيه ، ثم رأى الأمير محمد صرف ما كان بيد هاشم من دار الخيل والقيادة إلى الوليد بن عبد الرحمن بن غانم فقال : أصلح الله الأمير إنما كان هاشم عبدك وسهما من مراميك وسيفا من سيوفك نفذ لأمرك وتقدم فى المحاماة عن سلطانك ، حتى تقطع فى مراضاتك فليحسن الأمير أبقاه الله خلافته فى أولاده وليحقق من بعض بلائه بإمضاء ولده على خدمته فقال : ياوليد مثلك ذكر بشريف المنقبة وحض

على سنى المكـرمة وقديما مـا وُفقْتَ فوفقـت وُسدّدت فسـددت وأفضل الأصحاب عنـدنا الناصح فى المشـورة المذكر عند الغفلـة الباعث على المصلحـة وقد استحسنا مـا رأيت فمُرْ ولده بالتمادى على خدمته ولا تخلهم من تفقدك والإشراف عليهم بحسن نظرك وكان الأمير محمد مشغوفا بالبيان مؤثرا لأهل الآداب تـردد عليه بعض مواليه يسأل استخدامه بلطائف فى الرغبة وترفق فى المسألة فأوصى إليه لم يتقدم لك عندنا خيرة نقدمك بها غير ما رأيناه من حسن مخاطبتك فيما تَرُد علينـا من كتبك فإن كنت كاتبهـا فقد أحسنت وإن كنت اخترت بفضل همتك وجودة اختيارك من يحسن ذلك عنك فقد أبلغت فى العناية وفضلت فى الهمة وأنت بكلتـا الحالتين عندنا متقـدم وقد رجـونا بنفـاذك فى تهذيب كتبك تهذيبك لخدمتك فولينـاك على الرجـاء فيك فصَدِق الظن بك وحـافظ على أدنى حظك تنلْ أقصاه فقـل ما أحسن امرؤ فى بدء أمره إلا حسنت عاقبته وحمدت مغبته .

وكان أبو اليسر الشـاعر المعروف الريـاض قد اضطرب بالمشرق فأعيتـه وجوه مطالب الرزق فقصد الأنـدلس وافتعل كتابا على لسان ابـن الشيخ بالشام وألسنة عامـة أهل بلده بكل ما أمكنه من الاستدعاء إلى الخلافـة وذكر تقارب الدولة فلما ورد على الأمير محمد رحمه اللـه فهم أنه محتـال متعيش شحـاذ فأمر بتـوسع نزلـه وأمضى ذلك لـه بطول مكثـه ، ثم وصلت له إليه كتب يسأل الإذن لـه بعد طول مقامـه استحسنها الأمير واستلطفها فأدخل هاشم إلى نفسه وقال : ويحك هذا إنسان طالب معيشة تولّدت له بها هذه الحيلة فإن صرنا إلى تصديقـه ومجاوبته على حسب كتبه اتخذنا عنـد بنى هاشم مضحكة ومزراة وإن كـذبناه وحرمناه وقد احتل جنـابنا فلوم مشهور وفعل غير مشكور وقد رأينـا فيما خاطبناه عن نفسه تأليفًا حسنًا وتجويـدًا بالغًا لو كـان قصدنا به عن نفسـه على نأى داره وبعد مزاره لاستحق معروفنا واستوجب إحساننا ، ثم أمـر له بخمسمائة دينار وازنة وبكتاب ليس فيه غير بسم الله الرحمن الـرحيم فأخبرنا محمد بن وليد الفقيه قـال : خرج من قرطبة وخرجنا معـه نريد المشرق فجمعنا الطريق فإذا أحسن النـاس أدبا وأكثرهم تصرفا ، فلما صرنا بـالعدوة أخبرنا خبره وأمره ، ثم فض الكتاب بين أيدينا فإذا ليـس فيه غير بسم الله الرحمن الرحيم فجعل

يكثر التعجب من ذكاء الأمير محمد ويقول هكذا أعرف بنى أمية لم يكن ليُلام ولم يكن ليُخدع فلما صار الرياضى إلى مصر وقع صاحبها على خبره فأمر بحبسه قال محمد بن وليد فاتصل بنا خبره ووجب علينا فى رعاية الصحبة زيارته وتأنيسه فلما انصرفت وثلاثة معى من أهل الأندلس من صلاة الظهر يوم الجمعة ذهبنا إلى صلته وقصده بمكانه فسألنا عن الحبس فهدينا إليه فلما وقفنا بالباب كشفنا عنه فوصف لنا موضعه فدخلنا إليه ندعو له فقال لنا : هل حبستم معى ، قلنا له : ولِما ذلك ، قال : من دخل الحبس لم يخرج عنه إلا برأى السلطان فظنناه مازحا ، ثم أقلقنا ذلك وذهبنا لنخرج فدفع البوابون فى صدورنا فإذا نحن أعظم الناس داهية وأجهلهم بلية لا يعرفنا أحد ولا نعرف أحداً فلبثنا بذلك من حالنا حتى رفعنا أمرنا إلى المزنى الفقيه وذكرنا له مذهبنا فى الخير وقصدنا إليه فى طلب العلم فتردد على صاحب مصر فى أمرنا حتى يسّر الله إطلاقنا وكتب إلى الأمير محمد وليد ابن عبد الرحمن بن غانم عظمت نعمة الأمير أبقاه الله عن الشكر وجلت أياديه عن الشر فمتى رمتُ شُكر أدنى ما غمرنى وحمد أيسر ما اشتمل على تكائد بى الشكر وعجز بى الجهد وليس بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ فى القول والاجتهاد فى العمل إذ لم أرهما يدوران إلا على نعمة أزلفت ويقتصران إلا على زيادة انتُظرت وأنا بينهما مُخيم وعليهما مُعول والله الناقل لعباده بطاعتهم له وشكرهم إياه من دار الشقوة إلى دار السعادة ومن نصب العاجلة إلى راحة الآجلة فكتب إليه أن الله شاكر يحب الشاكرين وقد ناديت فأسمعت ولكل أجل كتاب ، ثم استوزره إلى أيام وولى الملك يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين فملك أربع وثلاثين سنة وتوفى فى يوم الجمعة لمستهل ربيع الأول من سنة ثلاث وسبعين ومائتين وهو ابن سبع وستين سنة .

وكان الأمير المنذر بن محمد غائبا يومئذ بكورة رية فى الغزاة التى كان أغزاه إياه الأمير محمد فوقع عليه الخبر بوفاة أبيه فأغذَّ السير وطوى المراحل حتى دخل قرطبة يوم الأحد لثلاث خلون من شهر ربيع الأول فأدرك جنازة أبيه وصلى مع الوزراء يومئذ عليه وهاشم يعول إعوال من غلبه الجزع واشتد عليه التفجع فقال متمثلا بقول أبى نواس :

أعــــزى يــــا محمـــــد عنـك نفسى   معــاذ اللـــــه والأيـــدى الجســـام

فهـــلا مـــات قـــوم لم يمـــوتـــوا   ودُفـــع عنـــــك لى كـــأس الحمام

فاضطغن ذلك منذر عليـه وظن أنه يعنيه فصار من حبسه وقتله إلى مـا يطول ذكره مما قد وقع فى غير هذا الموضع ، ثم لم يلبث المنذر بن محمد إلا سنتين لم يدرك فيهما لقصر مدته وتقلص أيامه رتق ما كان انفتق من الملك مع عزم كان منه فى ذلك وجدٍّ حتى نزل به الموت وهو على ببشتر محاصرا لها يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، ومات وهو ابن ست وأربعين سنة .

ثم ولى الأمير عبـد الله يـوم السبت يوم مهلك أخيـه وكان قـد سئم الناس من طـول المقام فما هو إلا أن علموا بوفاة المنذر وخرقت حشود الكور ووفود القبائل وانصدعوا فى كل وجهة كانوا بها وأمر بضبطهم فلم يلف أحد يضبط فانتقل خائفا على نفسه من عدوه وقدم أخاه المنذر بين يـديه وكان أشير عليه بدفنـه فأنف من ذلك حتى قدم به قرطبـة فدفنه مع أبائه فى القصر ، ثم إن الأمور تفاقمت فى ولايته وتفاوتت بعد قرب تداركها فتفرقت أجناده وعجز عن نصره قواده والتـزم التقوى وإظهار النسك وتوفير مـا فى يده من أموال المسلمين حياطة عليهـا ونظر لهم فيها وهلك الجبايات باشتـداد شوكة الثوّار عليه بكل ناحيـة فوقر أعطيات الأجنـاد وضيق على من بقى معه منهم واستـولى الفساد فى كل وجـه وآل أمر ابن حفصون إلى ما آل إليه مما قد شهُر ودُون حتى ضبط عليه حصن بُلاى وهو على مرحلة من قرطبة وانبسطت خيل ابن حفصـون فيما حواليه فكانت تصاحبه كل يـوم غادية ورائحة على أعـلام شقندة وفج المائدة ولا يـدفعهـا دافع وبلغ الأمـر إلى أن تقدم فـارس من شجعـان أصحابه وقـد ضرب ابن حفصون وخيله على الفج المطل على قرطبـة فاقتحم القنطرة ودفع رمحه فأصاب الصورة التى على باب القنطرة ، ثم كـرَّ راجعا إلى أصحابه وتمادى هذا البلاء خمسـة وعشرين سنة وكـانت الأمـور قد التأمـت بعض الالتئام فى آخـر أيـامه بقيـادة أبى العباس أحمد بن محمـد بن أبى عبدة فلـه على ابن حفصون وغيره من الثوار وقـائع مشهورة

انتصف فيها منهم وأربى عليهم وأخرج ابن حفصون من حصن بلاى وجبى بعض نواحى الشرق ، وصالح قوما آخرين على بعثة أموال ضربت عليهم مع إقرارهم فى مواضعهم ولعبد الله الأمير توقيعات بليغة وأشعار بديعة فى الغزل والزهد لا يكاد أن يقع مثلها أو يتسب إلى من تقدمه نظيرها كتب إلى أحمد بن محمد القائد فى يوم عيد : « أما بعد فالتزم التوكل على الله تبارك وتعالى والثقة به فى جميع أمورك وما أنت بسبيله من ثغرك فإنهما حِرز من كل ضُر يتقى وبلاغ لكل خير يرتجى وكن من التحفظ فى أيام عيدك على أحسن الذى يجب عليك الأخذ به والتحفظ فيه فالله خير حافظ وهو أرحم الراحمين » وأملى كتابا إلى بعض عماله : « أما بعد فلو كان نظرك فيه عصبناه بك واهتبالك على حسب مؤثراتك وبكتبك واشتغالك بذلك على مهّم أمرك لكنت من أحسن رجالنا غناءً وأبلغهم نظرًا وأفضلهم حزمًا فأقللْ من الكتاب فيما لا وجه له ولا نفع فيه واصرف همتك وفكرتك وعنايتك إلى ما يبدو به اكتفاؤك ويظهر فيه عناؤك إن شاء الله والسلام » .

وله فى الغزل :

ويلى على شادن كحيل ... فى مثله يُخلعُ العِذارُ
كأنّما وجنتاه ورد ... خالطه النور والنهارُ
قضيب بان إذا تثنّى ... يدير طرفا به احْورارُ
فصفو ودى عليه وقف ... ما اطرد الليل والنهارُ

وله فى الزهد :

يا من يُراوِغه الأجلْ ... حتام يُلهيك الأملْ ؟
حتام تخشى الردى ... وكأنه بك قد نزلْ
أغفلْت عن طلب النجاة ... ولا نجاة لمن غفلْ
هيهات يشغلك المُنى ... ولما يدوم بك الشغلْ
فكأن يومك لم يكن ... وكأن نعيك لم يزلْ

وأما عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأمير فإنه ولى الخلافة والفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاشٍ فى كل ناحية منها فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحدًا ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما فى يديه فافتتح الأندلس مدينة مدينة وقتل حماتها واستذل رجالها وهدم معاقلها وضرب المغارم الثقيلة على من استبقى من أهلها وأذلهم بعسف العمال غاية الإذلال حتى دانت له البلاد ، وانقاد له أهل العناد فمات ابن حفصون فى حصاره وقُتل سليمان ابنه محاربا له واستنزل سائر بنيه وأهله وأمنهم وصاروا فى جنده وملك ببشتر وبناها وحصنها وهدم كل حصن غيرها وذُكر أنه إنما استبقاها عدة لنفسه ولولده ليلجوا إليها لما كانوا يحدثون فى الآثار من أى فتن تهيج فى الأندلس بخوارج يخرجون على أهلها يخربون البلاد ويقتلون الرجال ويسبون النساء والولدان حتى يعم الفساد جميع أقطارها فلا يبقى فيها إلا من اعتصم بالمعاقل أو لجأ إلى البحور وهو عندهم الفساد المتصل بالبلاء الأعظم الذى لا صلاح بعده ولا بقاء معه والله أعلم وهو المستعان واتصل ملك عبد الرحمن خمسين سنة فى عز منيع وسلطان قاهر وافتتاح للبلدان شرقا وغربا مع غزو العدو والغلبة له ، وانتساف بلده وهدم حصونه والاستبلاغ فيه لا يلقى ذُلا ولايرى فى شىء من أموره نقصا ، وتناهى ذلك السعد حتى فتح الله له ما وراء البحر من المدن الجليلة والمعاقل المنيعة كسبتة وطنجة وغيرها ، ودان له أهلها فاستعمل عليها القواد وحصنها بالرجال وأمدهم بالجيوش الكثيفة فى الأساطيل حتى وطت بلاد البربر واستذلت ملوكها فصاروا بين متقبع محصور ومذعن منيب وشارد هارب ، ومالت إليه الأهواء وسمت نحوه الهمم فضافره على حربه وتجرد فى نصره من كان مستبصرا فى قتاله من شيعة أعدائه فنكص على موالاته واستهلك فى مراضاته واستحكم من أمره ما لو اتصل عزمه فيه وتأييد الله عليه لغلب على المشرق فضلا عن المغرب ولكنه عفى الله عنه مال إلى اللهو واستولى عليه العجب فولى للهوى لا للغناء واستمد بغير الكفاة وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره وفوض إليه جليل أموره وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه وحالُ

بجدة حال مثله فى غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم فى الغزوة التى غزاها عام ستة وعشرين وثلثمائة وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها أقبح هزيمة وأتبعهم العدو أياما يأسرونهم ويقتلونهم فى كل محلة فلم يكد ينجو منهم إلا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا إلى بلدانهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه وخلا بلذاته ومبانيه فبلغ فى ذلك مبلغا لم يبلغه أحد ممن تقدمه أو تأخر بعده وأخباره فى ذلك أشهر من أن توصف ، واجتمع فى دولته من علية الرجال وسروات الكتاب خدمة لم يخدم الملوك مثلهم فى فضل آدابهم واتساع إفهامهم مع المروءة الطاهرة والسيرة الجميلة كموسى بن حُدير الحاجب وعبد الحميد بن بسيل وعبد الملك بن جهور وإسماعيل بن بدر وابن أبى عيسى القاضى ومنذر بن سعيد كان واحد عصره فى العلم والأدب وحسن الخطاب وكان عيسى بن فطيس كاتبه أبلغ الناس إذا كتب إلى كثير منهم لا يتسع التأليف لذكرهم ووصف محاسنهم عفا الله عنا وعنهم ورحمنه وإياهم فمن كتّب عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر كتابه إلى أحمد بن إسحاق القرشى إذ سخط عليه وهو يحارب محمد بن هاشم التجيبى بسرقسطة وهو من كتبه التى انفرد بها بعد فإنّا كنا نرى الاستحماد إليك استصلاحا لك فأبى الطبع العزيزى إلا ما استحكم منه فيك وال . . .[1] إلا أن استحوذ عليك فالفقر يصلحك والغناء يطغيك إذ لم تكن عرفته ولا تعودته أو ليس كان أبوك فارساً من فرسان ابن حجاج أخسهم حالا عنده وأنت يومئذ نخاس الحمير بأشبيلية فأقبلتم إلينا فأويناكم ونصرناكم وشرفناك ومولناك واستوزرنا إيالك وقلدناك أعنة الخيل أجمع وفوضنا إليك أمر ثغرنا الأعظم فتهاونت بالتنفيذ لنا وقلة المبالا بنا ثم مع هذا الترشيح للخلافة فبأى حسب أو أى نسب وفيكم قال القائل :

---

(١) بياض فى الأصل .

أنتم خثار الخثار وليس خز كخيش

إن كنتم من قُريش تزوجوا فى قريش

أو كنتم قبط مِصر فذا التعاطى لأيْش

أليست كانت أمك حمدونة الساحرة وأبوك المجذوم وجدك بواب حوثرة بن عباس يقتل الحبال فى أسطوانة ويخيط الحلفا على باب داره فلعنك الله ولعن من أنشبنا فى الاستخدام بك فيا مابون ويامجذوم ويابن الكلب والكلبة أقبل صاغرا .

ومما خاطب به عبد الملك بن جهور عبد الرحمن الناصر لدين الله من استجة وهو حينئذ ولد وجعل عنوان كتابه :

لأبى المطرف سيدى من عبده المتعبد

وتحت العنوان

دامت لك النعمى وإن رغمت أنوف الحسد

ووقتك نفسى كل محذور يروح ويغتدى

وعلوت حتى لا يقال لقدرك العالى ازددِ

إنى كتبت وحرشوْ قى يستميح تجلدى

ودموع عينى تنهمر فتُحيل ما كتبت يدى

لتغرُبى وتوحّشى وتفردى وتوحدى

من ذاق طعم البين ذا ق الموت غير مصرد

ورأى المنية جهرة فى مصدر أو مورد

أتـــذكـــر الأنْس الـــذى   ولّى وطيـب المشهـــد

وكـــريـم بشـــرك لى ووجـــ   ـــهك حين يشرق فى النـــدى

فـاعى مـن الحـــسرات ألـــ   ـــوانًا تُطـــيل تبلُـــدى

فـــاسلم وعِـش وأبلغ مـــدًا   ك ودع حســـودك يكمُـــدِ

وارحمه إن نلـت العـــلا   وجـــرى بجـــد انْكـــدِ

ثـم الســـلام عليـك منّـــ   ـــى دائما يـــا سيـــدى

ومن جيد قول عبد الملك بن جهور فى النرجس :

قـد بعثنـا إليك بـالنـرجس الغض   حكى لـــون عـــاشق معمـــود

فيـه ريح الحبيـب عنـد التـلاقى   واصفـــرار المحب عنـد الصـــدود

وله فى زوجته وكان كارها لأخلاقها وله معها أخبار عجيبة ثم صار إلى مفارقتها :

مـن ذا يفـك إســـاريـــه   ويحل عقـــد عقـــاليـــهْ

مـن ذا يخلـص مـن هـــوى   مـن حينـــه فى الهاويـــهْ

إنـــى بليـــتُ بشر مـــن   تحت السماء العـــاليـــهْ

إنـى دُهيت بحيـــة   قطعت حـــراك لســـانيـــهْ

لـــو كنت تبصرهـــا سألـت   اللـــه منهـــا العـــافيـــهْ

مـــا أبصرتها مقلتـــى   مـــذ أبصرتها راضيـــهْ

تمضـى السنـــون وتنقضـى   وحيـــاتها متماديـــهْ

ولها أُهيـــــل منتــــن غُــورُ الــوجـوه ســواسيـــةْ

لـــــولا الحيـــــاء بصقـت فى تلك الـــوجـــوه البـــاليـــةْ

يـــا يـــوم معــــرفتـى بهم يــــا زانـى ابن الـــزانيــــةْ

أنشبتنـى وعـــــــــررتنـى وقعــــدت عنـى نـــاحيـــه

مـــا كــــان هـــذا منك فى الـــود القـــديـم جــزائيـــةْ

وبما خاطب به إسماعيل بن بدر الكاتب عبد الرحمن بن محمد الناصر :

عـــزمت البين أرق طـــرف عينى وفـــرق بين من أهـــوى وبينى

لقــد نـــام القعيـد قـــريـر عين بمــــن يهوى وبـــتُّ سخين عين

إذا وجـــه الصبـــاح بـــدأ تهادت ركـــائبنـــا لأَبْـنِ بعــــد أين

فقلبى نــــازح عنـى غـــريـب وجسمـى دونـــه فى غـــربتين

أجـوب القفـر بعــد القفـر أبغى بـــذاك رضى إمـــام المغـــربين

ومـن لا يبتغـى دعــــــةً إلى أن يكـــون خليفـــة بـــالمشرقيْن

لقـد حلـت حميـا الـــراح عنـدى وطـــابت بعـــد فتحك معقلين

وآذن كـل هـم بـــأنفــــــــراج وأن يقضـى غـــريمـك كل ديْـن

وهـــذا البحـــر يــذكــر منك عهـدا سقـى مغنـــاه نـــو المرزمين

تحن إليك منـــه طـــاميـــات مـن الأمـــواج مـــلأ الخافقين

لئن جـــاشـت غـــواربها بماء أجـــاج لا يســـوع لـــواردين

فأنـت البحـــر عـــذبـاً مستهــلا علينـــا بـــالنضـــار وبـــاللجين

فعـش فى غبطـــة وسرور ملـك تـــدوم لـــه دوام الفـــرقـــدين

أما قوله لقد حلت حميا الراح وآذن كل هم بانفراج فإن أمير المؤمنين عبد الرحمن لما غزا غـزاته الثـانية آلى أن لا يأنس بمنـادمة حتى يفتتح معقـلاً فافتتح معقلين من معـاقل ابن حفصون فكتب إليه بهذا الشعر وكان عبد الـرحمن أمير المؤمنين قد كتب سحاءة مقرطة من قطعة زجاج من الزجاج الذى يفزون به لرأس إسماعيل فكتب إليه :

قـــد كنـت أوجبت فى الـــزجــاج ... للـــرأس منـى بـــلا اختـــلاج
كبيرة أتـــــرعت رحيفًـــــا ... صرفًـــــا أبت ذلـــــة المزاج
فلـم أزل بعـــــد ذا رجــــاء ... لها فهـل يـــــاوين لـــــراج
يـــامـــالكــا رايـــة ضيـــاء ... فى كـــل خطـــب ألم داجـــى
كـأنما الفجـــــر مـن سنـــــاه ... فى غسـق الليـل ذوابتــــــلاج
بحـــر مـن الجود فــاض عـــذبــا ... طـم على الأبحـــــر الأجــــاج
مـن لى بيـــوم بـــــه قـــراع ... ليس أخـــو كـــربـــه بنـــاج
بكـل بيضـــــاء مـن رآهـــــا ... يحسبهـــــا شعلـــــة السراج
لا تنـس مـــــولاك فى وغــــــاه ... واذكـــره فى حـــومـــة الهيـــاج

فكتب إليه أمير المؤمنين :

كيـف وإنـى لمن ينـــــــاجـى ... من لـــوعـــة الشـــوق مـــا أنـــاجى
يطمـع أن يستريـح وقتـــــــا ... أو يقتـل الــــراح بـــــالمزاج
لـــو حُمل الصخـــر بعض شجـــوى ... عـــاد إلى رقـــة الـــزجـــاج
كنـتُ كما قـــــــد علمـت الهوا ... إذ أنـــــا ممـــا شكـــوتُ نـــاج
فصرت للبين فى عـــــــــلاج ... طـم وأربـى على العـــــــلاج

الـــورد ممـــا يـــزيـــد حـــزنى ويبعث الســـوسن اهتيـــاجى

أرى ليـــــالى بعـــــد حسن أقبـح مـن أوجـــــــــه سماج

لا تـــــرج ممـــا أردت شيئـــا أو يـــؤذن الهم بـــانفـــراج

وله فى عبد الرحمن أمير المؤمنين رحمه الله تعالى :

لطفت أنــامله بعقرب صُـدغـه عمـدا ليلـدغ فى فـؤاد العــاشق

وكأن شــاربــه هــلال طــالع قـد خطه بـالمسك أحـذق حـاذق

وكأنما بجبينـــه شمـس الضحى قـد قُنعت بظـلام ليـل غـاسق

وكأن وجنتــه أزاهــر روضـة يبأى بها السـوسـان فـوق شقـائق

فإذا تلفـت قلت صــورة دُميـة وإذا تبسم قلـت خظفـة بـارق

يـاغـايـة الحسن الـذى هـو غـايتى كيف احتمالى فى فـؤاد خــافق

حكم الإلــه بما تـــراه فما أرى مـن حيلـــة فى دفـع حكم الخالـق

قل للخليفـة مـن أميـة والــذى مــادون فيض نــوالـه عــائق

أنسيت من منصـورهـا ورشيـدهـا وفضحت مـن مهـديِّها والــواثق

وحكيت عن عبـد المليك وهـديـه سيما الخليفـة والإمـام البـاسق

أأصيع بعـــد مـــواثـق لك جمة فيما مضى أكـــدتها بمـــواثـق

تم مـا جمع فى هذا التأليف من أخبـار فتح الأنـدلس وأمرائهـا والحمد للـه حق حمده والصلاة على سيدنا محمد نبيه وعبده(١) .

---

(١) هذا ما وجد من المخطوط والمطبوع .

تواريخ تتعلق بالتاريخ السياسى

٧١٠ م ـ (٩١) هـ الاعتراف بطريف فى أسبانيا .

٧١١ م ـ (٩٢) هـ حملة طارق بن زياد .

٧١٢ م ـ (٩٣) هـ عبور موسى بن نصير إلى أسبانيا .

٧١٣ م ـ (٩٤) هـ توقيع معاهدة بين تيودومير وبين عبد العزيز بن موسى بن نصير .

٧١٨ م ـ هـ ثـورة بيلاج Pelage فى منطقة الأستوريين Asturies وهو تاريخ محتمل لمعركة كوفا دونغا .

٧٢٩ م ـ (١١١) هـ ثورة Munusa فى شمال أسبانيا .

٧٣١ م ـ (١١٣) هـ ولادة عبد الرحمن الأول .

٧٣٢ م ـ (١١٤) هـ المعركة المسماه بمعركة بواتيه (بلاط الشهداء) .

٧٤١ م ـ (١٢٣) هـ ثورة عامة يقوم بها بربر أسبانيا .

٧٤٢ م ـ (١٢٥) هـ توطين جند بلج فى السوريين فى أسبانيا .

٧٥٥ م ـ (١٣٨) هـ إبحار عبد الرحمن الأول إلى Almunacar .

٧٥٦ م ـ (١٣٨) هـ بداية إمارة عبد الرحمن الأول .

٧٥٩ م ـ (١٤٢) هـ تنفيذ حكم الموت بيوسف الفهرى والصميل .

٧٧٧ م ـ هـ يلتقى حاكم سرقسطة المسلم بشارلمان فى بادربورن Pade Rborn .

٧٧٨ م ـ (١٦٢) هـ حصار سرقسطة من قبل شارلمان معركة رونسفو Roncevaux .

***

تواريخ تتعلق بالتاريخ الاجتماعى والثقافى والأثرى

٧١٩ م - ١٠٠ هـ قرطبة تصبح مقرًا للسمح بن مالك .

أعيان من إفريقية يأتون فيستقرون فى أسبانيا .

موت Tabi'Hanashas - San'ani .

٧٤٢ م - (١٢٥) هـ جنوب أسبانيا يصبح مرة ثانية مشرقيا .

٧٥١ م - ٧٥٣ م - (١٣٤) هـ - (١٣٦) هـ مجاعة فى أسبانيا عودة جزء من السكان البربر إلى المغرب .

٧٧٩ م - (١٦٢) هـ تخريب جزئى لجسر قرطبة .

٧٧٨ م - (١٧٢) هـ موت عبد الرحمن الأول وارتقاء هشام الأول . المناداة بإدريس الأول فى واليلا Walila فى مقاطعة (فولو بيليس الرومانية) بالقرب من مكناس حاليا .

٧٩٣ م - (١٧٧) هـ مات إدريس الأول مسمومًا .

٨١٧ م - (٢٠٢) هـ مسألة « الضاحية » فى قرطبة .

٨٢٢ م - (٢٠٦) هـ موت الحكم الأول وارتقاء عبد الرحمن الثانى .

٨٤٤ م - (٢٣٠) هـ استيلاء الفيكنز على أشبيلية . والفيكنز يصعدون مع الغارون إلى تولوز.

٧٨٤ م - (١٦٨) هـ تشييد الألكزار فى قرطبة .

٧٨٥ م - (١٦٩) هـ العمل على توجيه مجموع اتباع الكنيسة فى قرطبة نحو العبادة الإسلامية .

٧٨٨ م - ٧٩٦ م / (١٧٢) هـ (١٨٠) هـ ترميم جسر قرطبة .

٧٩٥ م (١٧٩) هـ موت مالك بن أنس .

٨٠٨ م ـ (١٩٣) هـ بناء إدريس الثانى لمدينة فاس .

٨١٦ م ـ (٢٠٠) هـ إدخال المذهب المالكى إسبانيا .

٨٢٤ م ـ (٢٠٦) هـ وصول زرياب إلى إسبانيا وبدء التأثير العباسى .

٨٢٥ م (٢١٠) هـ تأسيس مرسيا من قِبَل عبد الرحمن الثانى .

٨٢٩ م (٢١٤) هـ تشييد جامع أشبيلية الكبير من قِبَل عبد الرحمن الثانى .

٨٣١ م (٢١٦) هـ تأسيس مرسيا من قِبَل عبد الرحمن الثانى .

٨٣٣ م ـ (٢١٨) هـ تشييد جامع Jaen الكبير ، . صحنان جانبيان أضيفا إلى جامع قرطبة الكبير .

٨٣٥ م ـ (٢٢٠) هـ بناء قصر ميريدا Merida من قبل عبد الرحمن الثانى .

٨٣٩ م ـ (٢٢٥) هـ تبادل السفارات بين قرطبة وبيزنطة .

٨٤٨ م ـ (٢٣٤) هـ موت الفقيه يحيى الليثى .

٨٥١ م ـ هـ استشهاد الفتاتين فلورا وماريا فى قرطبة .

٨٥٣ م ـ هـ استيلاء النورمان على أورليان وباريز .

٨٥٩ م ـ (٢٤٥) هـ استيلاء الفيكنز على الجزيرة Algeciras (ميناء فى مضيق جبل طارق) .

٨٨٦ م ـ (٢٧٣) هـ وفاة محمد الأول وارتقاء المنذر .

٨٨٨ م ـ (٢٧٥) هـ وفاة المنذر وارتقاء عبد الله .

٨٩٠ م ـ (٢٧٧) هـ ولادة عبد الرحمن الثالث .

٨٩١ م ـ (٢٧٨) هـ استيلاء عبد الله على أشبيلية ونهبها .

٩١٢ م ـ (٣٠٠) هـ وفاة عبد الله وارتقاء عبد الرحمن الثالث .

٩١٥ م ـ (٣٠٢) هـ ولادة الحكم الثانى .

٩١٨ م ـ (٣٠٥) هـ وفاة ابن حفصون مثير الاضطرابات .

٨٥٣ م ـ (٢٣٨) هـ وفاة الفقيه والمؤرخ ابن حبيب .

٨٥٥ م ـ (٢٤١) هـ تأسيس قلعة رباح Calat Rava .

٨٥٧ م ـ (٢٤٣) هـ وفاة زرياب فى قرطبة .

٨٥٩ م ـ (٢٤٥) هـ بناء جامعى القرويين Al - Karawiyin والأندلس فى فاس .

استشهاد أيلوجه Euloge وليكريسيا Leocyitia فى قرطبة .

٨٦٤ م ـ (٢٥٥) هـ وفاة الفقيه العتبى .

٨٧٣ م ـ (٢٦٠) هـ قحط فى أسبانيا .

٨٧٥ م ـ (٢٦٢) هـ تأسيس تينيس Tenes على ساحل الجزائر من قبل بحارة أندلسيين .

٨٨٣ م ـ (٢٧٠) هـ إعادة بناء ليريدا Lerida من قِبَل ابن قص Kasiy .

٨٨٦ م ـ (٢٧٣) هـ بناء بيت المال فى الجامع الكبير بقرطبة .

٨٨٩ م ـ (٢٧٦) هـ وفاة الفقيه بكر بن مخلد .

٩٠١ م ـ (٢٨٨) هـ تأسيس الجامع الكبير فى ليريدا .

٩٠٥ م ـ (٢٩٢) هـ وفاة عبد الله بن قاسم بن هلال وهو الذى أدخل مذهب الزاهرية إلى أسبانيا .

٩١٣ م ـ (٣٠١) هـ تحطيم أسوار أشبيلية وبناء الألكازار من قِبَل سعيد بن المنذر الحاكم الأموى .

٩١٥ م ـ (٣٠٣) هـ قحط فى أسبانيا .

٩٢٠ م ـ (٣٠٨) هـ استيلاء المسلمين على مدينة اوسما ، وسان استبان دى قورماز وكولونيا ومويز .

٩٢٨ م ـ (٣١٦) هـ استيلاء عبد الرحمن الثالث على بوباسترو Bobastro .

٩٢٩ م ـ (٣١٦) هـ عبد الرحمن الثالث يعلن عن نفسه خليفة وأميرًا للمؤمنين .

٩٣١ م ـ (٣١٩) هـ استيلاء الأمويين على مدينة سوتا Ceuta .

٩٣٢ م ـ (٣٢٠) هـ عبد الرحمن الثالث يستولى على طليطلة .

٩٣٩ م ـ (٣٢٧) هـ انكسار الجيوش الأموية فى سيمانكاس والخندق Simancas ALhandega .

٩٥١ م ـ (٣٩٣) هـ وفاة روميرو الثانى .

٩٥٤ م ـ (٣٤٣) هـ نزول الأسطول الفاطمى بساحل ألمريا ALmeria .

٩١٩ م ـ (٣٠٧) هـ طاعون فى أسبانيا .

٩٢٨ م ـ (٣١٥) هـ بناء دار السكة فى قرطبة .

٩٣٢ م ـ (٣١٩) هـ بناء المقر الأموى فى Bilyunash بالقرب من سوتا .
وفاة ابن مسرة فى قرطبة .

٩٣٦ م ـ (٣٢٥) هـ تأسيس المقر الأموى فى مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة .

٩٣٧ م ـ (٣٢٦) هـ مولد الشاعر ابن هانىء .

٩٤٠ م ـ (٣٢٨) هـ وفاة الأديب ابن عبد ربه

٩٤١ م ـ (٣٢٩) هـ إمداد جامع قرطبة الكبير بقناة من المياه .

٩٤٢ م ـ (٣٣٠) هـ وصول أبى على القالى إلى قرطبة .

٩٤٤ م ـ (٣٣٣) هـ تأسيس عبد الرحمن الثالث داراً لبناء السفن البحرية فى طورطوزة Tortosa .

٩٤٥ م ـ (٣٣٤) هـ قدوم سفارة بيزنطة إلى قرطبة .

٩٤٦ م ـ (٣٣٥) هـ طاعون فى أسبانيا .

٩٥١ م ـ (٣٤٠) هـ بناء مئذنة جديدة فى جامع قرطبة الكبير .

٩٥٣ م ـ (٣٤٢) هـ سفارة جان دى قورز إلى قرطبة .

٩٥٥ م ـ (٣٤٤) هـ وفاة المؤرخ الرازى .

تأسيس مدينة المرية من قبل عبد الرحمن الثالث .

٩٥٧ م ـ وفاة أوردونيو Ardono الثالث .

٩٦٠ م ـ (٣٤٩) هـ استيلاء جوهر الفاطمى على فاس .

٩٦١ م ـ (٣٥٠) هـ وفاة عبد الرحمن الثالث وارتقاء الحكم الثانى .

٩٦٦ م ـ (٣٥٥) هـ نزول النورمانديين على ساحل الأندلس الأطلنطيكى .

٩٧٠ م ـ استيلاء النورمانـديين على سان جاك دى كومبوستيل Saint - Jacques de Compostelle .

٩٧٦ م ـ (٣٦٦) هـ وفاة الحكم الثانى وارتقاء هشام الثانى .

٩٧٨ م ـ (٣٦٨) هـ خلع الوزير Mushafi .

٩٨٠ م ـ (٣٧٠) هـ قيام المنصور بالإصلاح العسكرى .

٩٨١ م ـ (٣٧١) هـ غزوة المنصور ضد ليون Leon والاستيلاء على سيمانقاس . Simancas

٩٨٥ م ـ (٣٧٤) هـ غزوة المنصور ضد كاتالونيا والاستيلاء على برشلونة .

٩٨٨ م ـ (٣٧٧) هـ استيلاء المنصور على مدينة كوئمبر Caimbre وليون Le'on وزامورا Zamora .

٩٥٦ م ـ (٣٤٥) هـ بناء جامع طورطوزة الكبير ، سفارة قرطبية إلى نافار .

٩٥٨ م ـ (٣٤٨) هـ تمتين الواجهة الشمالية فى جامع قرطبة الكبير .

٩٦١ م ـ ٩٦٦ م / (٣٥٠) هـ ـ (٣٥٥) هـ توسيع جامع قرطبة الكبير من قِبَل الحكم الثانى .

٩٦٦ م ـ (٣٥٥) هـ وفاة القاضى منذر بن سعيد البلوطى .

٩٦٨ م ـ (٣٥٧) هـ بناء حصن بانيوس دى لا انسينا Banos de la Encina من قبل الحكم الثانى .

٩٧٠ م ـ وفاة حسدى بن شبروط .

٩٧٢ م ـ (٣٦٢) هـ سفارة بيزنطية فى قرطبة .

٩٧٣ م ـ (٣٦٢) هـ وفاة الشاعر ابن هانىء .

٩٧٧ م ـ (٣٦٧) هـ وفاة الراوى ابن القوطية .

٩٧٨ م ـ (٣٦٨) هـ تأسيس المقر الأميرى فى المدينة الزهراء قرب قرطبة .

٩٨٧ م ـ ٩٨٨ م / (٣٧٧) هـ توسيع جامع قرطبة الكبير من قِبَل المنصور . مولد المؤرخ ابن حيان .

٩٨٩ م ـ (٣٧٨) هـ وفاة الشاعر ابن هانىء

٩٩٤ م ـ (٣٨٤) هـ مولد ابن حزم فى قرطبة .

٩٩٧ م ـ (٣٨٧) هـ غزوة المنصور ضد غاليسيا .

الاستيلاء على سان جاك دى كومبوستيل .

انكسار زيرى بن عطية فى مراكش أمام الأمويين .

٩٩٩ م ـ وفاة ملك ليون Le'on برمود الثانى وارتقاء الفونس الخامس .

١٠٠٢ م / (٣٩١) هـ ـ (٣٩٢) هـ غزوة المنصور ضد قشتالة .

وفاة المنصور فى المديناشلى Me'dinacell .

وصاية عبد الملك المظفر .

١٠٠٣ م ـ (٣٩٣) هـ غزوة ضد كاتالونيا .

١٠٠٥ م ـ (٣٩٥) هـ غزوة ضد غاليسيا .

١٠٠٦ م ـ (٣٩٦) هـ غزوة ضد بامبيلون Pampelune .

١٠٠٧ م ـ (٣٩٧) هـ غزوة ضد قشتالة وانتصار كلونيا .

عبد الملك يلقب نفسه بالمظفر .

١٠٠٨ م ـ (٣٩٩) هـ وفاة المظفر .

وصاية عبد الرحمن سانشويلو .

تنازل هشام الثانى .

ارتقاء محمد المهدى .

المناداة بسليمان المستعين .

وفاة محمد المهدى .

١٠١٠ م ـ (٤٠٠) هـ عودة هشام الثانى إلى الحكم .

١٠١١ م ـ (٤٠١) هـ تأسيس إمارة فالنسيا .

١٠١٦ م / (٤٠٦) هـ ـ (٤٠٧) هـ ـ استيلاء على بن حمودة على قرطبة .

غزوة مجاهد ضد سردينيا .

وفاة سليمان المستعين .

وفاة على بن حمودة .

ارتقاء القاسم بن حمودة .

١٠٠٥ م ـ (٣٩٥) هـ إقامة الخطبة باسم هشام الثانى فى جامع القرويين Karawyin الكبير فى فاس .

١٠٠٨ م ـ (٣٩٩) هـ نهب المدينة الزاهرة .

١٠١٠ م ـ (٤٠١) هـ طاعون فى إسبانيا .

تدمير قصر الرصافة فى قرطبة .

١٠١٢ ـ ١٠١٣ / (٤٠٣) هـ وفاة الشاعر الرمادى وعالم السير ابن الفرجى .

١٠١٨ م ـ (٤٠٨) هـ ارتقاء عبد الرحمن الرابع المرتضى .

وفاة الكونت سانشو غارسيا .

بدء الحملات الصليبية البورغونية ضد أسبانيا المسلمة .

١٠٢١ م ـ (٤١٢) هـ ارتقاء يحيى بن على بن حمودة فى قرطبة .

١٠٢٣ م ـ (٤١٤) هـ ارتقاء عبد الرحمن الخامس المستظهر .

ارتقاء محمد الثالث المستكفر .

وفاة إسماعيل بن عباد .

١٠٢٧ م ـ (٤١٨) هـ ارتقاء هشام الثالث المعتد .

١٠٢٨ م ـ (٤١٩) هـ وفاة العبد خيران فى ألمرية .

وفاة ملك ليـون الفونس الخامس . وارتقـاء ابنه بـرمودو Bermudo الثالث .

١٠٣٠ م ـ (٤٢٠) هـ سقوط الأسرة الأموية فى أسبانيا نهائيًا . عودة زاوى بن زيرى Zawi Ibn Ziri إلى إفريقية .

١٠٣٥ م ـ وفاة سانشو الكبير وارتقاء فرديناند الأول .

١٠٣٧ م ـ وفاة ملك ليون ببرمودو الثالث فى معركة تامارون .

١٠٣٨ م ـ (٤٢٩) هـ وفاة العبد زهير فى ألمريا ، وفاة عباس بن زيرى و إرتقاء باديس فى غرناطة .

١٠٤١ م ـ (٤٣٣) هـ وفاة القاضى محمد بن عباد وارتقاء المعتضد فى أشبيلية .

١٠٤٣ م ـ (٤٣٥) هـ وفاة أبو الحزم بن جوهر وارتقاء أبو الوليد بن جوهر فى قرطبة

١٠٤٤ م ـ (٤٣٦) هـ وفاة مجاهد فى دينيا De'ni'a .

١٠٢٧ م ـ (٤١٨) هـ وهو التـاريخ المقدر لتأليف ابن حزم كتابه طـوق الحمامة فى مدينة ياتيـــفا Jativa .

وفاة ابن برد الأكبر فى سرقسطة .

١٠٣٠ م ـ (٤٢١) هـ وفاة الشاعر بن دراج القسطلى .

إعادة بناء أسوار باداجوز Badajoz .

١٠٣٤ م ـ (٤٢٦) هـ وفاة أبو عامر بن شهيد .

١٠٤٥ م ـ (٤٣٧) هـ وفاة عبد الله بن الأفطس فى باداجوز وارتقاء المظفر مولد السيد .

١٠٥٣ م ـ (٤٤٥) هـ حملة فرديناند الأول ضد مملكة طليطلة .

١٠٥٦ م ـ (٤٤٨) هـ وفاة وزير غرناطة اليهودى ابن an - Naghralla .

١٠٥٧ م ـ (٤٤٩) هـ باديس يضم المملكة الحموية فى مالقة .

حملة فريديناند الأول ضد مملكة باداجوز .

الاستيلاء على مدينتى فيسيو Viseu ولاميغو Lamego .

١٠٥٨ م ـ (٤٥٠) هـ ضم إمارة روندا لمملكة أشبيلية .

١٠٦٣ م ـ ١٠٦٤ م / (٤٥٦) هـ استيلاء فرديناند الأول على كوئمبرة Caimbre .

استيلاء النورماند الأفرنسيين على بارباسترو .

١٠٦٥ م ـ (٤٥٧) هـ استرداد بارباسترو من قبل ابن هود .

١٠٦٦ م ـ (٤٥٩) هـ وفاة فرديناند الأول ملك قشتالة وليون واقتسام دولتيه .

١٠٦٦ م (٤٥٨) هـ وفاة اللغوى ابن صيدح

١٠٦٧ م (٤٥٩) هـ وفاة الشاعر أبى إسحق الألبيرى

١٠٧٠ م (٤٦٢ - ٤٦٣) هـ وفاة سعيد الطليطلى والشاعر ابن زيدون

١٠٧٦ م (٤٦٩) هـ وفاة المؤرخ ابن حيان

١٠٨١ م نفى السيد

١٠٨٢ م (٤٧٥) هـ وفاة المستعين بن هود

١٠٨٤ م (٤٧٧) هـ مولد على بن يوسف

١٠٨٥ م (٤٧٨) هـ استيلاء ألفونس السادس على طليطلة

١٠٨٦ م (٤٧٩) هـ انتصار المسلمين فى الزلاقة Sagrajas

١٠٨٨ م (٤٨١) هـ عودة يوسف بن تاشفين إلى أسبانيا

١٠٨٩ (٤٨٢) هـ حصار آليدو Aledo

١٠٩٠ م (٤٨٣) هـ عبور يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة ، خلع عبد الله صاحب غرناطة

١٠٩١ م (٤٨٤) هـ استيلاء المرابطين على أشبيلية

نفى المعتمد إلى مراكش ، وفاة المعتصم صاحب ألمريا

١٠٩٢ م (٤٨٥) هـ مقتل الخضير بن ذى النون فى فالنسيا ، أسبانيا المسلمة تصبح من ممتلكات المرابطين

١٠٩٤ م (٤٨٧) هـ استيلاء السيد على فالنسيا ، إعدام ابن جحّاف Djahhaf

١٠٩٩ م (٤٩٢) هـ وفاة السيد فى فالنسيا

١١٠٢ م (٤٩٥) هـ استيلاء قائد المرابطين مزدالى على فالنسيا

ارتقاء ألفونس الأول عرش أرغونا

١١٠٦ م (٥٠٠) هـ وفاة يوسف بن تاشفين

١١٠٨ م (٥٠٢) هـ معركة اوكلس Ucles ووفاة سانشو ابن الملك البكر .

وفاة المستعين بن هود صاحب سرقسطة

١١٠٩ م (٥٠٢) هـ وفاة ألفونس السادس ، ارتقاء الملكة اورّاقة Urraca

١١٠٩ م (٥٠٣) استيلاء المرابطين على طلافير Talavera

١٠٧٨ م (٤٧١) هـ قدوم الشاعر الصقلى ابن حمديس إلى إسبانيا

١٠٨٠ م (٤٧٣) هـ بناء الألجافيريا Aijaferia فى سرقسطة

١٠٨١ م (٤٧٣) هـ وفاة الفقيه أبو الوليد الباجى فى ألمريا

١٠٨٣ م (٤٧٦) هـ وفاة اللغوى الأعلم من سانتا ماريا

١٠٨٤ م (٤٧٧) هـ اعدام الوزير الشاعر ابن عمار

١٠٩١ م (٤٨٤) هـ وفاة الشاعر ولاّدة

١٠٩٣ م (٤٨٦) هـ وفاة الفقيه ابن سهل .

١٠٩٤ م (٤٨٧) هـ وفاة عالم الجغرافية أبى عبيد البكرى

١٠٩٥ م (٤٨٨) هـ مولد ابن قزمان . وفاة المعتمد فى Aghmat

١١٠٦ م (٥٠٠) هـ وفاة الزهراوى (Abulcacis)

١١١١ م (٥٠٤) هـ استيلاء المرابطين على : سانتاريم ، باداجوز ، بورتو ، ايغورا ، لشبونة .

١١١٨ م (٥١٢) هـ استيلاء ألفونس المحارب على سرقسطة

١١٢٠ م (٥١٤) هـ معركة كوتاندا Cutanda

١١٢١ م (٥١٥) هـ عصيان المهدى بن تمارة فى مراكش . بداية حركة الموحدين

١١٢٦ م تتويج ألفونس السابع فى ليون .

١١٣٠ م (٥٢٤) هـ وفاة المهدى والمناداة بعبد الله المؤمن

١١٣٤ م (٥٢٨) هـ انتصار المسلمين فى Fraga

وفاة الفونس الثالث صاحب أرغونا

١١٣٥ م استقلال البرتغال

١١٤٣ م (٥٣٧) هـ وفاة على بن يوسف

١١٤٤ م - ١١٤٥ م (٥٣٩) هـ نهاية حكم المرابطين فى أسبانيا . عصر الطوائف الثانى

ثورة إسلامية فى الغارف Algarve

وفاة تاشفين فى أوران Oran

١١٤٦ م (٥٤٢) هـ المناداة بابن ماردانيش فى فالنسيا

استيلاء المسيحيين على ألمريا

١١١٣ م (٥٠٧) هـ وفاة الشاعر ابن اللبانة

١١٢٥ م (٥١٩) هـ وفاة ابن زهر

١١٢٦ م (٥٢٠) هـ مولد ابن رشد فى قرطبة . وفاة الشاعر ابن عبدون والشاعر المسمى « اعمى توديل L' Avengle de Tudéle. وفاة الكاتب الأندلسى الطرطوشى فى الإسكندرية .

١١٣٤ م (٥٢٩) هـ مولد Maïmonide فى قرطبة .

١١٣٨ م (٥٣٣) هـ وفاة ابن خفاجة وابن باجة Avempace .

١١٤٤ م (٥٣٩) هـ وفاة ريفرتر Reverter قائد جيوش المرابطين المسيحية .

١١٤٥ م (٥٤٠) هـ تدمير سور قادش من قِبَل ابن ميمون .

١١٤٧ م (٥٤٢) وفاة الأديب ابن بسام .

١١٤٨ م (٥٤٣) هـ وفاة يحيى بن غانية .

استيلاء ريمون بيرانجيه الرابع على فراغا ، ليريدا ، طورطوزة

١٠٥٧ م (٥٥٢) هـ استيلاء الموحدين على غرناطة . استرداد الموحدين الألمرية .

١١٥٨ م ارتقاء الفونس الثامن .

١١٦٣ م (٥٥٨) هـ وفاة عبد المؤمن وارتقاء أبى يعقوب يوسف .

١١٧١ م (٥٦٧) هـ وفاة ابن ماردانيش .

١١٨٤ م - ١١٨٥ م (٥٨٠) هـ غزوة ضد سانتاريم ووفاة أبى يعقوب وارتقاء أبى يوسف يعقوب .

١١٩٥ م (٥٩١) هـ انتصار المسلمين فى العرق ألاركوس (Alarcos) .

١١٩٨ م - ١١٩٩ م (٥٩٥) هـ وفاة أبى يوسف وارتقاء محمد الناصر .

١٢١٢ م (٦٠٩) هـ انكسار المسلمين فى لاس نافاس دى طولوزة (العقاب) سقوط عبيدة وبا يزيد .

١١٥٠ م (نحو) نظم قصيدة السيد .

١١٥٤ م (٥٤٨) هـ عالم الجغرافيا الإدريسى ينهى عمله .

١١٥٩ م (٥٥٥) هـ وفاة الشاعر ابن قزمان .

١١٦١ م (٥٥٦) هـ تأسيس عبد المؤمن لمدينة جبل طارق .

١١٦٢ م (٥٥٧) هـ وفاة عبد المالك بن زهر Avenzaar .

١١٦٥ م (٥٦٠) هـ مولد المتصوف محيى الدين بن عربى فى مرسية .

١١٧١ م (٥٦٧) هـ أبو يعقوب يبنى جامعًا كبيرًا وجسرًا على الوادى الكبير فى أشبيلية .

١١٧٧ م (٥٧٢) هـ وفاة الشاعر الرصافى فى مالاقا Malaga .

١١٧٩ م (٥٧٥) هـ وفاة ابن خير .

١١٨٣ م (٥٧٨) هـ وفاة ابن باشكوال Bashkuwal .

١١٨٥ م (٥٧١) هـ وفاة الفيلسوف ابن طفيل فى مراكش .

١١٩٨ م - ١١٩٩م (٥٩٥) هـ مولد ابن الآبار . وفاة ابن رشد فى مراكش .

١٢٠٤ م وفاة مائمونيد Maïmonide .

١٢٠٧ م (٦٠٤) هـ وفاة الأديب ابن الشيخ البلاوى .

١٢١٤ م وفاة ألفونس الثامن .

١٢١٧ م ارتقاء فرديناند الثالث صاحب قشتالة .

(٦٢٥) هـ ثورة ابن هود فى الشرق الإسبانى .

١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ - ٦٢٩) هـ الاستيلاء على ماجورك . Majorque .

نهاية حكم الموحدين فى إسبانيا .

١٢٣١ م (٦٢٨ - ٦٢٩) هـ سقوط ميريدة وباداجوز .

وفاة إدريس المأمون من الموحدين .

المناداة بمحمد الأول الغالب .

١٢٣٦ م (٦٣٣) هـ استيلاء فرديناند الثالث على قرطبة :

١٢٣٧ م (٦٣٤ هـ - ٦٣٥) هـ انكسار المسلمين فى آنيشة Anisha . استيلاء محمد الأول على غرناطة .

١٢٣٨ م (٦٣٦) هـ استيلاء جاييم الأول Jaime صاحب أرغونا على فالنسية .

١٢٤٣ م (٦٤٠) هـ استيلاء جاييم الأول صاحب أرغونا على مرسيا .

١٢٤٦ م (٦٤٤) هـ الاستيلاء على Jaénوالاستيلاء على Jativa .

١٢٤٨ م (٦٤٥ هـ - ٦٤٦) هـ الشرق الأسبانى يقع كله فى أيدى المسيحيين .

استيلاء فرديناند الثالث على أشبيلية .

١٢٥٢ م وفاة فرديناند الثالث وارتقاء الفونس العاشر .

١٢١٤ م (٦١٠) هـ مولد ابن سعيد فى Alcala La Real .

تأسيس ألفونس الثامن لجامعة بالانسيا Palencia .

١٢١٥ م تأسيس الفونس التاسع لجامعة سالامنك Salamanque .

١٢١٧ م (٦١٤) هـ وفاة ابن جبير فى الإسكندرية .

١٢٢٠ م (٦١٧) هـ تشييد برج الذهب Tour de l'or فى أشبيلية .

١٢٢٢ م (٦١٩) هـ وفاة الأديب الشريشى ash-Sharishi فى مدينة Jarez

١٢٢٧ م (٦٢٤) هـ جدب فى أسبانيا .

١٢٣٥ م (٦٣٣) هـ وفاة الأديب ابن ديهياء Ibn Dihya .

١٢٤٠ م (٦٣٨) هـ وفاة محيى الدين بن عربى فى دمشق .

١٢٤٨ م (٦٤٦) هـ وفاة عالم النبات ابن البيطار فى دمشق .

١٢٥١ م (٦٤٩) هـ وفاة الشاعر ابن سهل ترجمة كليلة ودمنة إلى اللغة القشتالية .

١٢٥٧ م (٦٥٥) هـ استيلاء ألفونس العاشر على نيبلا Niébla .

١٢٥٨ م (٦٥٦) هـ ارتقاء أبى يوسف يعقوب فى مراكش .

١٢٦٢ م (٦٦٠) ا هـ ستيلاء ألفونس العاشر على قادش Cadiz .

١٢٧٠ م (٦٦٨) هـ سان لويس Saint Louis أثناء حصار تونس .

١٢٧٣ م (٦٧١) هـ وفاة محمد الأول النصرى وفاة Jaim الأول عاهل أرغونا .

١٢٨٤ م (٦٨٢) هـ وفاة ألفونس العاشر فى قشتالة .

١٢٨٧ م (٦٨٦) هـ الاستيلاء على مينورك Minorque .

١٢٩٢ م (٦٨٩) هـ استيلاء سانشو الرابع على Tarifa .

١٣١٩ م ارتقاء ألفونس الحادى عشر على العرش .

١٣١٤ م (٧١٣) هـ ارتقاء النصرى إسماعيل الأول .

١٣١٩ م (٧١٩) هـ انتصار المسلمين فى اليكوم Alicum

١٣٣١ م (٧٣٢) هـ ارتقاء أبى الحسن فى فاس .

١٢٥٤ م تأسيس ألفونس العاشر فى أشبيلية لمدرسة لتعليم اللاتينية والعربية .

١٢٥٥ م (٦٥٣) هـ وفاة المؤرخ الأسبانى البيَّاسى فى تونس .

١٢٥٨ م (٦٥٦) (تقريبا) وفاة الأديب ابن عميرة .

١٢٦٠ م / ٦٥٨ هـ التنفيذ بابن الأبَّار فى تونس .

١٢٦٩ م (٦٦٨) هـ وفاة الصوفى ابن صابعين الأسبانى فى مكة .

١٢٧٤ م (٦٧٢) هـ وفاة النحوى الأسبانى ابن مالك فى دمشق .

١٢٧٦ م (٦٧٥) هـ تشييد فاس الجديدة ومقر إقامة البونية بالقرب من الجزيرة .

١٣٠٠ م تأسيس Jaim الثانى لجامعة لاريدا Lérida فى أرغونا .

١٣٠٦ م (٧٠٦) هـ تأليف المؤرخ الدهرى للبيان المغرب .

١٣٠٨ م (٧٠٨) هـ وفاة ابن الزبير فى غرناطة .

١٣٣١ م (٧١٣) هـ مولد ابن الخطيب فى Loji .

١٣١٥ م وفاة رامون لول Ramon Lull .

١٣٣٢ م (٧٣٢) هـ مولد عبد الرحمن بن خلدون فى تونس .

الكشاف العام

٢ ـ الأماكن الجغرافية

٣ـ الطوائف والبطون والقبائل

٤ ـ الكتب الواردة في النص

٥ ـ الأشعار

★★★

مصادر ومراجع التحقيق

١ ـ ابن الأبار — ـ المعجب في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي
القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م
ـ الحلة السيراء
تحقيق الدكتور حسين مؤنس
القاهرة ١٩٦٣ م

٢ ـ الإدريسى — ـ نزاهة المشتاق في اختراق الآفاق
روما ـ نابولي ١٩٥٢ هـ

٣ ـ الأزدى — ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس
القاهرة ١٩٦٦ م

٤ ـ الأندلسى — ـ المغرب في حلي المغرب
تحقيق الدكتور شوقى ضيف
القاهرة ١٩٦٤ م

٥ ـ الباجى — ـ نص أندلسي
ترجمة ودراسة بالإنجليزية د . دنلوب

٦ ـ بالنثيا (آنجل جنثالث) — ـ تاريخ الفكر الأندلسى
ترجمة الدكتور حسين مؤنس
القاهرة ١٩٥٥ م

٧ـ ليفي بروفنسال — ـ الإسلام في المغرب والأندلس
ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى
القاهرة ١٩٥٦ م

٨ ـ ابن حزم — ـ نقط العروس
تحقيق الدكتور شوقى ضيف
القاهرة ١٩٥١ م

٩ ـ د / حسين مؤنس — ـ فجر الأندلس
الدار السعودية للنشر
١٩٨٧ م
ـ رحلة الأندلس
القاهرة ١٩٦٣ م
ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس
القاهرة ١٩٨٠ م
ـ المسلمون في حوض البحر المتوسط
القاهرة ١٩٨٧ م

١٠ ـ ابن حيان — ـ المقتبس في أخبار بلد الأندلس
تحقيق الدكتور على محمود مكى
بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م

١١ ـ ابن الخطيب — ـ الإحاطة فى أخبار غرناطة
تحقيق محمد عبد الله عنان
القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤ م
ـ أعمال الأعلام
نشرة ليفى بروفنسال

١٢ ـ ابن خاقان الفتح — ـ قلائد العقيان من محاسن الأعيان
تونس ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م

١٣ ـ ابن خلدون — ـ العبر
بيروت ١٩٥٨ م ـ ١٩٦٠ م

١٤ ـ ابن خلكان — ـ وفيات الأعيان
تحقيق إحسان عباس
دار صادر ـ بيروت ١٩٦٨ م

١٥ ـ الدباغ ـ معالم الإيمان
تحقيق إبراهيم شبوخ
القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م
١٦ ـ السيد عبد العزيز سالم ـ قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس
بيروت ١٩٧١ م
١٧ ـ ابن عميرة الضبى ـ بغية الملتمس
القاهرة ١٩٦٧ م
١٨ ـ ابن عياض ـ ترتيب المدارك
تحقيق أحمد بكير محمود
بيروت ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م
١٩ ـ الغرناطى ـ فرحة الأنفس فى أخبار الأندلس
تحقيق د/ لطفي عبد البديع
القاهرة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م
٢٠ ـ ابن فرحون ـ الديباج المذهب
القاهرة ١٣٢٩ هـ
٢١ ـ ابن الفرضى ـ تاريخ علماء الأندلس
القاهرة ١٩٦٦ م
٢٢ ـ ابن القوطية ـ تاريخ افتتاح الأندلس
تحقيق عبد الله الطباع
بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م
٢٣ ـ القيروانى ـ طبقات علماء أفريقية
تونس ١٩٦٨ م
٢٤ ـ القيرواني والخشنى ـ قضاة قرطبة
القاهرة ١٩٦٦ م.

٢٥ ـ ابن الكردبوس التوزرى ـ تاريخ الأندلس
تحقيق أحمد مختار العبادى
مدريد١٩٧١ م

٢٦ ـ المالكى ـ رياض النفوس
تحقيق د / حسين مؤنس
القاهرة ١٩٥٤ م

٢٧ ـ المراكشى ـ البيان المغرب
بيروت ١٣٨٠ هـ

٢٨ ـ المقرى ـ نفح الطيب
القاهرة ١٣٣٩ هـ ـ ١٣٤١ هـ /
١٩٣٩ م ـ ١٩٤٢ م

٢٩ ـ مجهول ـ أخبار مجموعة
مدريد ١٨٧٦ م

٣٠ ـ الناصرى ـ الاستقصا
الدار البيضاء ١٩٥٤ م

٣١ ـ النباهى ـ المرتبة العليا
القاهرة ١٩٤٨ م

❊ ❊ ❊

رقم الإيداع ٢١٢٦ لسنة ١٩٩٤
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 5496 — 03 — 9

هذا الكتاب

كانت أسبانيا فى العقد الأخير من الحكم القوطى ضعفاً سياسيا واجتماعيا يجعلها فريسة سهلة لأى فاتح يقدم عليها سواء من جهة الجنوب أو الشمال . والأندلس يطلق على أسبانيا الإسلامية والبرتغال الإسلامية ، وهو مشتق من واندالوسيا Uandaluci وهو الاسم الذى أطلق على الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة جنوبى حوض نهر بيطى Betis الوادى .

ولما كان التاريخ السياسى العام للأندلس هو قصة الصراع بين أسبانيا النصرانية بشتى وحداتها السياسية وأسبانيا الإسلامية ، وتنفيذا لأوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموى قام موسى بعدة غارات استكشافية على جنوب أسبانيا لجس النبض ، فتبين لموسى ضعف المقاومة الأسبانية ، فبدأ فى تجهيز جيشا كبيرا من سبعة آلاف محارب لغزو الأندلس بقيادة طارق بن زياد نائبه على طنجة .

من هذا نرى أن فتح المسلمين لأسبانيا لم يكن منذ البداية مغامرة حربية ارتجالية بل كان فتحا منظماً حسب ترتيبات مدروسة من قبل . فلهذا نقدم كتاباً يلقى شيئاً من الدقة والتفاصيل على فتوحات حملات العرب على الأندلس .

والله المعين

الناشر



دار الفرجانى

القاهرة : ٩ ميدان الذهبى ـ منشية البكرى ـ مصر الجديدة

ص . ب : ٢٣٨٢ الحرية تليفون : ٢٩٠٥٨٩٥